«إيواء المستجير»
في شعر
كل من الحطيئة و جرير

د محمد بن سليمان السديس

بين أبي مُلَيْكَةَ الحطيئةِ جرولِ بنِ أوسٍ العبسيِّ وأبي حَزْرَةَ جرير بْنِ عطيَّةَ بْنِ حُذَيفةَ (الخطَفَى) الكُلَيْبِيِّ اليربوعيِّ التَّميميِّ أمور مشتركة علة تجذب كلا منهما لمضاهاة صاحبه ، فقد عاشا في عصر واحد وإن فارق أوّلهما الدنيا ولمّا يَطِرَّ شارِبُ الآخر ، لكنهما استنشقا الهواء في الوقت نفسه على وجه الأرض سبع عشرة حِجَّةً ، وكل مهما ذو مِقْوَلٍ بتَّارٍ إذا هجا، ذَلِقَ إذا مدح، وكل منهما كان دميماً(١). وإذا كان الحطيئة مغموزَ النسب غيرَ ذي شأنٍ من حيث عراقةُ النِّجارِ وخُلوصُ النَّسَبِ(٢)، فإنَّ جريراً كان من أبٍ شحيحٍ ذي عيوب خلقيَّةٍ(٣)، ولم يكن له أدنى حظٌ من مجدِ غالب بن صعصعة أبي قِرْنِهِ الفرزدق مثلا.

فكلٌّ منهما عانى معاناةً غير اعتيادية كان لها ، دون شك ، أثر قوي في سَوْقِهِ إلى الحِدَّة المُفْرِطة في نقد غيره(٤) .

ثم إن كلاًّ منهما شاعرٌ فحلٌ إلى أعلا رتب الفحولة ، ما في ذلك من ريب ، وأبرز أغراض شعر كلٍ منهما الهجاء والمديح⁽٥⁾ ، كما أشرنا ؛ ولدى كل منهما - وهُنا مربط الفرس - تؤلف الفضائل النفسية والمُثل الخلقيَّة المعنوية العليا من عزَّةٍ وقوّةٍ وعفَّةٍ ونجْدة وإباءٍ ووفاءٍ وسخاءٍ وحياءٍ وما جانسها معاييرَ أساسيةً يستندان إليها استناداً شديداً سواء حين يمدحان أو يفخران أو يرثيان أو يهجوان . وإن استند جرير بخاصة ، إلى جانب تلك المثل ، على المعايب الشخصية الحسِّيَّة والإقذاع المفحش .

وقد كانت تلك الفضائل الخُلقِيَّةُ متّكأً العرب الأقدمين بعامة في المدح والهجو⁽٦⁾ .

و « إيواء المستجير » واحدة من تلك القيم التي لا يفوت المُطَّلعَ على شعر كل منهما بروزُها بروزاً جاذباً للملاحظة من بين سائر القيم التي يكبرها العرب ، ويعلو في أعينهم مقام من يرعاها ، ويهبط مقام من لا يأبه لها .

ولهذا السبب قرَنّا في هذا الحديث بين هذين الفحلين لأن « الجوار » وما له به صلة ظاهرةٌ بارزةٌ مشتركةٌ بينهما شغلت بال كلٍّ منهما كثيرا .

أولا : « إيواء المستجير » في شعر الحطيئة :

يكون (السائل) للعطاء في العادة كثير الإشادة بالسماحة والسخاء والبذل ، يمطر الأجواد بسيل منِ الثناء ، ويردّد علىِ أسماع من يجتديهم أو يزمع اجتداءهم ذكر الأسخياء من الرجال كائلاً لهم الإطراء كَيْلاً . وما ذلك إلا لحاجةٍ غيرِ خفيَّةٍ في نفس يعقوب ، فهو منتفع من فُشُوِّ الجود بين الناس ، وإن كان هو مفرط الحرص ، فكأنه يحضّ مخاطَبيه على أن يتأسَّوْا بالكرام فيجودوا عليه بكل ما يسألهم ، ولا يحجزوا عن يديه المتطاولتين ما تمتدَّان إليه . لكنَّ إطلاق اليد بالنَّوال يجب أن يقوم به ، في نظره ، غيره دائماً ، أما هو فإن سامِعَتَيْهِ لَمُوصَدَتانِ عمّا يَفُوهُ بِهِ فُوهُ ، وهو أنأى ما يكون عن إتيانِ ما هو إليه داعٍ ، أو الائتمارِ بما هو به آمر :

وإنَّكَ إذْ ما تأتِ ما أنتَ آمِرٌ بِهِ تُلْفِ من إيَّاه تَأْمُرُ آتِيا

والمتشرد البائس الذي لا يأوي إلى ركنٍ شديد ، ولا عضد له في وسط اجتماعي يهيمن فيه بطش المقتدر بالواهن ، والتسلط على من لا سند له ولا نصير من قبيلة يَشُدُّ

بنوها بعضُهُمْ أزْرَ بعضٍ ، لما يربطهم من حَبْلٍ عَصَبِيَّةٍ محكمِ الفتل يوجب على كل فرد ينتسب إلى القبيلة وتجري في عروقه دماؤها أن يهبّ لنجدة الفرد الآخر والوقوفِ معه إن مظلوماً وإن ظالماً ، هذا المتشرد لا يرى سبيلا للبقاء والنَّماء والانتعاش في هذا المحيط المتصارع إلا بِالْتماسِ (الحامي) الذي يُلْقِي (بردته) عليه فيجد تحتها الأمن التامَّ من سائر الأعداء المرئيّين والخفيين الذين يتربصون بالمرء في ذلك العهد الدوائر من خوفٍ وإملاقٍ وسَغَبٍ وإذْلالٍ . وهكذا كان شأن الحطيئة الذي كان متدافعَ النسب بين القبائل ، وكان ينتمي إلى قبيلةٍ حيناً وإلى أخرى حيناً حسبما ينتابه من غضب على إحداها ورضاً على الأخرى(٧) ، بل قد قيل عنه حتى إنه كان مولوداً من سِفاحٍ لكنّ فصاحته شرَّفَتْهُ(٨) . وكان ذا بنات ومقتراً من المال ، ورابطته بقبيلته ـ كما مرَّ بك ـ واهنةٌ ، فوجد في أحد الأعراف العربية السائدة بين القبائل جميعا ما يحقق له ذلك ، فيوفر له الأمان ، ويحميه من أن تمتدّ إليه يد ، ويسبغ عليه من المال والطعام ما يمكّنه من العيش الكريم ، وإن كانت يده هي السّفلى ويد غيره العليا . ذلكم هو (الجوار) ذلك العرف المعترف به في طول الجزيرة العربية وعرضها وبين شتى فروع سكانها .

وقد ثَمَّرَ الحطيئة هذا العرف بما يعود عليه بالنفع أشدّ تَثْميرٍ . فما كلَّ ولا وهن من إعلاءِ شأن من يلتزم به تجاهه وتجاه سواه ، والإشادةِ بجميلِ صنيعهم ، ومِنْ ذَمّ من يتراخي في حماية المستجير به والذَّبِّ عنه من أن تحلَّ به حالَّةٌ ، أو يَمَسَّهُ أذى .

إنَّ وراءَ الأكَمَةِ ما وراءها ! وما وراء هذا التعظيم لخطر الإجارة ، والذَّودِ عن الجار ، ورعايةِ حرمته ، إلا دافعٌ انتفاعيٌّ شخصيٌّ ، تماما كمدح المُكْدِين لِباذِلِي المالِ ، وما هو بتقريرٍ لما اصطلح العرب عليه وإيمانٍ به وحسب . فكلما فشت في الناس قيمةُ هذا العمل العرفيِّ ، وحَسُنَ احتمال ما يتطلبه من المرء ، وكلما ساء في الأعين التفريطُ في حق المستجير والتقصيرُ في الذَّبِّ عنه وتوفير الرَّعْي له والاعتناء به ، كثرت الثمار الناضجات للحطيئة وأسرته ليقطفوها جَنِيَّةً هَنِيَّةً ، وتفتحت السبل وتعددتْ للمستَذَلِّين والضَّعَفَةِ والبائسين تلقاء عيشٍ أَرْفَهَ وحياةٍ آمَن .

وثمَّة داعٍ آخرُ دعا الحطيئة إلى التوجه في شعره إلى القول في القيم الخلقية الحميدة السائدة في مجتمعه ، وعلى رأسها الجوار ، واتخاذها معايير يزن بها عظمة ممدوحيه وقماءة مذموميه ، ذلك هو قِلَّةُ (البدائل) التي كانت متاحةً له لتلك القيم . فإذا كان كثير

من فحول الشعراء تغنَّوْا مثنى وثُلاثَ وُرُباعَ بالأحساب الكريمة والأمجاد الباذخة والشرف الرفيع ـ كما صنع الفرزدق مثلاً ـ وعيَّروا بالضعف والهوان وقلة الفَعَال الحُسْنَى وخَوَاء الحسب ، فأنَّى للحطيئة ذي النسب المهتزِّ بتلك المفاخر وأمثالها ؟ وكيف يثني على أحد بأمر لا يقوى هو على التباهي به ، أو يذمُّ آخر بما قد يكون فيه هو (فَيَرَى الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ وَلاَ يَرَى الْجِذْعَ الْمُعْتَرِضَ فِي عَيْنِه) ؟

والواقع أنَّ أَبَا مُلَيْكَةَ وضع الجوار نُصْبَ عينيه مادحًا أو قادحًا . كما أن مسألة واحدة استأثرت من حديثه عن الجوار بأكبر نصيب ، تلك هي مسألة استجارَتِهِ بالزِّبْرِقان ابن بدر سيّدِ بني بَهْدَلَةَ ثم تحوُّلِهِ إلى بغيضٍ بن عامر بن شمَّاس بن لأي وقومِهِ بني قريع . فما شأن تلك الاستجارة ؟

مسَّتِ الحطيئَةَ في إحدى السنوات الحاجَةُ مسًّا عاصِراً فقَدِمَ المدينَةَ ، ومعه امرأتان له وصِبْيَةٌ صغارٌ ، في طريقه إلى الكوفة ليلتمس الغوث ممن يجد فيها من عبس قومِهِ. فلقيه في الطريق الزِّبْرِقانُ بْنُ بَدْر ، وكان آتيًا بصدقات قومه بني بَهْدَلَةَ بن عوف إلى المدينة ليسلمها إلى عمر رضي الله عنه ، وكان الزبرقان شريفاً وشاعراً ، وقد ولاَّه النبيُّ ﷺ على قومه وَأَقَرَّهُ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فعرف الحطيئةَ وسأله عن طِيَّتِهِ فأخبره ، فعرضٍ عليه أن يَحُلَّ عنده جاراً ، وضمن له القوت الكافيَ من (تَمْرٍ ولَبَنٍ) فَقَبِلَ الحطيئةُ . وكان الزِّبْرِقانُ سيقضي في المدينةِ أياماً ، فكتبَ معه كتاباً إلى امْرَأتِهِ ـ وقيل أُمِّهِ ـ وطلب منها إكرامَ الرَّجُلِ وعائِلتِهِ .

لَكِنْ يبدو أن شيئًا من تقصيرٍ وجفاءٍ بدا من المرأة للحطيئة ، ولعل ذلك لعدم معرفتها بأمره وشِعْرِه ، ولدمامته ورثاثة هيئته وسوء حاله .

وكان بغيض بن عامر ، الآنفُ الذِّكْر ، وإخوتُهُ وبنو عَمِّهِ ، من بني قُرَيع ينافسون الزِّبْرِقان وقَوْمَهُ أَبْنَاءَ عَمِّهِمْ (بني بَهْدَلَةَ بن لأْم) وينازعونهم الشرف⁽⁹⁾ ، وكان اسمُهُمْ بَني أُنْفِ النَّاقة « وكان اسمًا غير محبَّبٍ إليهم» حتى قال فيهم الحطيئة بيته الشهير ، كما هو معروف . فلما علموا بحال الحطيئة عند ربَّة مثواهُ تلك بعثوا إليه ثلاثة منهم يعرضون عليه التَّحوُّلَ إليهم ، ويضمنون له الإِكْرَامَ ، فأبى وقال : « لَسْتُ بِحَامِلٍ على الرَّجُلِ ذَنْبَ غَيْرِهِ ، فإن تُرِكْتُ وجُفِيتُ تَحَوَّلْتُ إليكم » .

ويقال إنهم بعد ذلك زعموا لامْرَأةِ الزِّبْرِقانِ أنه إنَّما أجاره لرغبته في أن يتزوج مُلَيْكَةَ أبْنَتَهُ ، وكانت حسناءَ ، فأفلحوا في تحريك غيرتها وغيظها منه فبدا له منها الجفاءُ ، وإن سعت إلى إخفائه مداراةً له .

ثم أزمعت المرأة التَرَحُّلَ من الموضع الذي هي وأبناؤها فيه إلى موضع آخر ، واتفقت معه على أن تُرَدَّ إليه (الظَّهْر) أي المَطِيَّةَ ليلحقها هو وأسرته ، فتثاقلت في رَدِّهِ وتركته يومين أو ثلاثة ، فجاءه بنو أنف الناقة ، مرة أخرى ، وأغْرَوْهُ أن يصحبهم وأَلَحُّوا في إغرائه ، وقالوا له : « قد تُرِكْتَ بِمَضْيَعَةٍ ! » وكان أكثرهم إلحاحاً عليه بغيضُ بن شمَّاس وعلقمة بن هَوْذَة ، وكان علقمة شديد الاغتياظ على الزبرقان لشعر عاتبه فيه(١٠) .

فلما أكثروا القول (أجابهم ، وقال : أَمَّا الآن فنعم ، أنا صائِرٌ معكم . فَتَحَمَّلَ معهم ، فضربوا له قُبَّةً ، وَرَبطُوا بكل طُنُبٍ من أطنابها جُلَّةً هَجَرِيَّةً(١١) ، وأراحوا عليه إِبِلَهُمْ ، وأكثروا له من التَّمْرِ واللَّبَن ، وأعطوه لِقاحًا وكِسْوَةً)(١٢) .

ولبث الحطيئة فيهم ، وهم يطمعون في أن يقول هجاءً في الزِّبْرِقان ، فلما طال عليهم الأمد ، حثُّوهُ على ذلك قائلين : « أَبْطَأْتَ أن تُسْمِعَ شَبَابَنَا بعض ما يَتَغَنَّوْنَ بِهِ مِن شَتْمِ هَذا الكلبِ »(١٣) !! ، فامتنع وقال : « لست بهاجيه ! ولا ذنبَ له فيما صنعت امْرَأتُهُ ، ولكني مُمْتَدِحُكُمْ وذاكرٌ ما أَنْتُمْ له أَهْلٌ »(١٤) ، كما قال : « قد أَبَيْتُ عَلَيْكُمْ أَهْوَنَ مِن شَتْمِهِ »(١٥) ، وكرر الإقْرار بأَنْ لا ذَنْبَ للزِّبرقان في جَرِيرَة زَوْجِهِ .

لكنهم لم يرضوا منه بمدحهم دون أن يهجُوَ الزِّبْرِقان قائلين إنّ من لم يشتمه ما مدحهم . ومضوا فيما هم فيه من إكرامٍ له واحتفاءٍ به(١٦) .

فلما قدم الزِّبْرِقَانُ ، وعلم بما وقع ، غضب جدًّا ، فَتَسَلَّحَ بِرُمْحٍ ، وامتطى جواده ، وسار إلى بني شمَّاس القريعيين حتى وقف على ناديهم فصاح بهم :
ـ ردّوا عليَّ جاري !
فقالوا :
ـ ما هو لك بجارٍ . وقد اطّرحته وضيّعته .

« فَأَلَمَّ أن يكون بين الحَيَّيْنِ حَرْبٌ ، فحضَرَهُمْ أَهْلُ الْحِجَا من قومهم ، فلاموا

بغيضًا ، وقالوا : ارْدُدْ على الرَّجُلِ جَارَهُ »(١٧) فأبى أن يخرجه وقد آواه ، وقال إن الحطيئة رجل حُرٌّ مالكٌ لأمْرِه ، وعرض عليهم أن يُخَيَّرَ الحطيئةُ بينه وبين الزِّبْرِقان . فلما خَيَّروه اختار بغيضًا وبَنِي قريع(١٨) .

وسار الحطيئة على ما كان عليه من مدحٍ لبني قريع دون هجاءِ الزِّبرقان والبَهْدَلِيِّينَ ، وقد أصَمَّ أُذُنَيْهِ عن حثِّ بغيضٍ وفتيه وتحريضهم له بالإقدام على ذلك ، وهذا صنيع حميد منه ، دون شك ، ولابد من أن نتفق مع طه حسين في إعجابه بموقفه هذا لمراعاته لما كان بينه وبين الزبرقان واحترامه (للعهد) وعدم أخذه الرجل بما لم يَجْنِ(١٩) .

لكنَّ الزِّبْرِقان جنى على نفسه ، إذ لم يُطِقْ صَبْرًا على تناسي فعلة بغيض ، فأغرى شاعرًا اسمه (دثار بن شيبان النَّمِرِيّ) بهجاء بغيض ، فاستجاب دثارٌ وهجا بغيضًا وقُرَيْعًا قَوْمَهُ وعيَّرَهُمْ باتِّصافهم بخلاف ما كانوا سعوا لتحقيق مجدهم من طريقه ، أعني « حُسْنَ الإجارة وعِزَّةَ الإيواءِ » ، فزعم أنهم ، لِلُؤْمِ طِباعِهِمْ ، وَقبضِهِمْ أيدِيَهُمْ ، صدُّوا إبِلَهُ عن ورود منهلِ مائِهِمْ ، لمَّا بلغَتْهُ فصدرت وهي عطاش شديدة الضّمور (أو حاقدة عليهم مبغضة لهم)، وهكذا الكناية عما لقيه منهم من حرمان كما ادّعى أنه كان هو وأسرته جيرانا للشمَّاس بن لأي (أي بني قريع) ، وهنا عمد إلى مَسِّ وَتَرٍ ذي حساسية ، فتَخلَّوْا عنه لمَّا احتاج إلى مؤازرتهم ، فطلب من صاحبته التحول إلى حيث العِزَّةُ والمَنَعَةُ والسُّمُوُّ والمَجْدُ الباذخ. وأين هذا كلُّهُ؟ إنه مجتمع في (الزِّبْرِقان وأبناء عشيرته الأقربين (بني بهدلة) ، أما بنو شمَّاس فماهم من جليلِ الأعمال ما هو خليقٌ بذكر :

أَرَى إِبِلِي بِجَوْفِ الماءِ حَنَّتْ   وأعوزها بـه المَـاءُ الـرَّوَاءُ
وقد وَرَدَتْ مِياهَ بَنِي قُرَيْـعٍ   فما وَصَلُوا الْقَرَابَةَ مُذْ أَسَاؤُوا
تُحَلَّأُ(٢٠) يَوْمَ وِرْدِ النَّاسِ إِبْلِي   وتَصْدُرُ وَهْـيَ مُحْنَقَـةٌ ظِمَـاءُ
أَلَمْ أَكُ جَارَ شَمَّاسِ بْنِ لأيٍ   فَأَسْلَمَنِي وَقَدْ نَـزَلَ الْبَـلاَءُ ؟
فَقُلْتُ : تَحَوَّلِي يَا أُمَّ بَكْـرٍ   إلى حَـيْثُ المَكَـارِمُ والْعَـلاَءُ
وَجَدْنَا بَيْتَ بَهْدَلَةَ بْنِ عَـوْفٍ   تعالى سَمْكُهُ ودَجَا الفِنَـاءُ(٢١)
وما أُضْحَى لِشَمَّاسِ بْنِ لأيٍ   قَدِيمٌ في الفَعَـالِ ولا رَبَـاءُ(٢٢)

وبهذا جرَّ الزّبرقان لنفسه ولقومه ما جَرَّتْه لنفسها براقش ، وأضرم بهذه البيوت المستفِزَّةِ الشديدة الإثارة التي أوحى لِدثارٍ النَّمِرِيِّ بقولها ، ناراً ذات أُوارٍ ، ومكَّن بذلك

منافسيه مما أعيوا عن إنجازه حيناً غير قصير ، فكأنه أهدى إليهم بها أنفس هدية . فما أن طرقت سامِعَتَيْ جَرْوَلَ حتى انبرى ، دونما ريث ، منتصراً لبني قريع ، وولج المعمعة التي لن يسمح لنفسه بأن يبرحها حتى يغسل عن مواليه كل عار ، بل وينهض بهم إلى الثُّريَّا ، ويسِمُ خصومهم بالمعايب والنقائصِ ، ويهوى بهم إلى الحضيض . خاض المعمعة التي كان يقف على تخومها[٢٣] ، واستهلَّ كفاحه الشعريَّ بقصيدة على الرَّويِّ نفسه (همزية)[٢٤] افتتحها بدعوة المخاطب إلى إبلاغ بني عوف بن كعب قاصِيهِمْ والدَّاني بأنَّ بني بَهْدَلَة رهطَ الزِّبْرقان الأدنَيْنَ ، بعد أن دعوه إليهم ليكون جارا لهم عزيزا مكرّما ، تخلّوا عنه فأضحى (لِكَلْبِهِ في دِيارِهِمْ عُوَاءٌ) فقد أُضيع وتُرِكَ في خِضَمِّ المعاناة وماسِّ الحاجة ، وأنه كان ينتظر العَشَاءَ حتى آخر الليل دون أن يقدّم إليه ، ولعلّه أراد أنه أطال الاستئناء والانتظار إلى طلوع (سُهيلِ) و (الشّعري) رجاءً في أن يتلافوا القصور ، ويقيموا أُوَدَ جارهم ، لكنهم أبوا إلا التنكُّرَ له وإهمالَ شأنه .

ثم إمعاناً في إغاظة الزبرقان وبني بهدلة مضى يفاضل بينهم وبين بني عمهم بني قريع مفاضلةً ضِيزى: فبينما لَهَا عنه أولئك وسَهَوْا، أمطره هؤلاء بِسَيبِ جودهم. ومثل هذه المفاضلة القائمة على الرَّفْع من شأن طَرَفٍ والحَطِّ من شأن آخر من أشدِّ الهجاء إيجاعًا ، ولذلك عدّها عمر رضي الله عنه من « الهجاء المقذع » فقد حذَّرَ الحُطَيْئَةَ ، لمَّا سجنه ثم أخرجه من السّجن ، بعد أن استعطفه بالأبيات المعروفة التي ذكر فيها (أَفْراخَهُ ذَوِي الحَواصِلِ الزُّغْبِ) حذّره قائلاً : (إياك وهجاء الناس ! قال : إذن يموتَ عيالي جوعاً ! هذا مكسبي ومنه معاشي . قال : فإيَّاك والمُقْذِع من القول ! قال وما المُقْذِع ؟ قال : أن تُخَايِرَ بين الناس فتقول : فلانٌ خَيْرٌ من فلان ، وآل فلان خير من آل فلان)[٢٥] . وقد اتفق الحطيئة مع عمر رضي الله عنه بأن ذلك النوع من الهجاء شديدُ الوَقْعِ على النفوس لأنه قال له بعد ذلك : « أنت أهجى مني ! »[٢٦] :

أَلَمْ أَكُ نَائِيًا فَدَعَوْتُمُوني   فجاء بِيَ المَوَاعِدُ والدُّعَاءُ ؟
أَلَمِ أَكُ جارَكُمْ فتركتموني   لكلبي في ديارِكُمُ عُوَاءُ ؟
وآنَيْتُ العَشَاءَ إلى سُهَيْلٍ   أو الشِّعْرى فطالَ بِيَ الأَنَاء
فلمَّا كُنْتُ جارَكُمُ أَبَيْتُمْ   وشَرُّ مَوَاطِنِ الحَسَبِ الإِبَاءُ
ولَمّا كنتُ جارَهُمُ حَبَوْنِي   وفيكُمْ كان ، لَوْ شِئْتُمْ ، حِبَاء[٢٧]

ثم انبرى يُسَوِّغُ ما فعلته قُرَيْعٌ باستمالتهم إياه إليهم ، وتحويلهم له ، من جوار الزبرقان

إلى جوارهم تسويغاً قويًّا مؤزَّراً بالحجج المُبينة ، والبيان الشِّعْرِي الرائع « السهل الممتنع » .. فما جارت قريع على الزِّبْرِقان لأنَّ لهم الحقَّ كُلَّ الحقِّ في أن (يبنوا) الأمجاد وكريم الفَعَال حيثما شاؤوا ، بل إنهم ، في حقيقة الأمر ، أحسنوا أجَلَّ إحسانٍ ، لأنهم لما رأوا جارَ ابْنِ عمِّهِمْ عاثراً بائسا نَعَشُوهُ فأمسى ذا مال بعد أن كان معدَمًا ، والجار ، مهما أطال اللُّبْثَ ، سيبرح جناب مجيريه فيمدح أو يذمُّ ، فمن الخير إكرامه لضمان حسن أحدوثته .

ثمّ صبَّ وابل حمده على قُرَيْعٍ الذين (علق بِحَبْلِهم) فاتّصل بهم بوشيجة الجوار ، فقد مكّنَهُمْ من العمل المجيد ثراؤُهم فباتوا يكفلون جارهم حتى ضدّ المنايا فيعوّضونه عما يَنْفَقُ له من نعم أو شاء .. ولذلك فإن العسر الذي يعتري بعض الناس في الشتاء لا يمسّ جارهم منه سوءٌ .

فلا وَأبيكَ ما ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ   بأن يَبْنوا المكارِمَ حيثُ شاؤُوا
...
بِعَثْرَةِ جَارِهِمْ أنْ يَنْعَشُوهَا   فيغبر حَوْلَهُ نَعَمٌ وشَاءُ
وإنَّ الجارَ مثلُ الضَّيْفِ يغدو   لِوِجْهَتِهِ ، وإن طال الثَّوَاءُ
وإنّي قد عَلِقْتُ بِحَبْلِ قَوْمٍ   أعانُهُمُ على الحَسَبِ الثَّرَاءُ

هم المُتَضَمِّنُون على المَنايا   بمالِ الجَارِ ، ذلكم الوفاء !
...
إذا نَزَلَ الشِّتَاءُ بِجَارِ قَوْمٍ   تَجَنَّبَ جَارَ بَيْتِهِمُ الشِّتَاءُ(٢٨)

وفي قصيدة أخرى خفيفة جميلة(٢٩) يمضي الحطيئة يكيل الثّناء لقريع جُزَافاً ، خلال أبيات زاخرة بالحيوية تكاد تُنْفَثُ فيها الروح لما غشيها من عاطفة مُتَّقِدةٍ ، وحماسةٍ أصيلة ، وكلها تسويغٌ لما صنع بنو أنف النّاقة من أخذِ جارِ ابْنِ عَمِّهِم من غير وجه حقّ ، ومحاماةٌ عنهم ، ودفعٌ لأي ظَنٍّ ، ربما كان بعضُه إثْماً ، بأنهم بذلك قد زَلُّوا ، فالذي حملهم ذلك المَحْمَل إن هو إلاَّ (الغيرة) على الزِّبْرقان أن تُلِمَّ بجاره مُلِمَّةُ سوء ، بل إنَّ فعلهم هذا لأَدَاءٌ لواجب ، وتَحَمُّلٌ كريم لِتَبِعَةٍ حملوها على عواتقهم عوضاً عن عاتق الزبرقان ، ولولا الله ثم هم لهلك جارُ ابْنِ عَمِّهِمْ ، ولكنهم ، لِسُمُوِّهِمْ ونُبْلِ مَعْدِنِهِمْ ما كانوا ليتخلَّوْا عنه في جوف قليبٍ جافَّةٍ لا ماءَ فيها ثم يَطْوُوا حِبالَهُمْ ويَدَعُوه فيها :

رَدُّوا عَلَى جَار مَوْلاَهُمْ بِمَهْلَكَةٍ   لولا الإِلٰهُ ولولا فَضْلُهُمْ ذَهَبَا
لن يتركوا جارَ مَوْلاَهُمْ بِمَتْلَفَةٍ   غَبْراءَ ثُمَّتَ يَطْوُوا دُونَهُ السَّبَبَا(٣٠)

و(حبل الجوار) الذي يَشُدُّ جارَهُمْ بهم مُحْكَمُ الفَتْل ذو مِرَّةٍ ، وإذا (عَقَدُوا عَقْدَ جِوَارٍ) فإنهم موفون بما أخذوا أنفسهم به إزاءَ من عقدوا له :

قَوْمٌ إذا عَقَدُوا عَقْداً لِجَارِهِـمُ   شَدُّوا العِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَه الْكَرَبَا(٣١)

وقد كَرَّرَ الحطيئة استخدام هذا المعنى في مدحه لبني لأْيِ بْنِ شمَّاس في مواضع أخرى ، فوصفهم تارة بأنهم (إن عَقَدُوا شَدُّوا)(٣٢) ، وأخرى بأنهم يوثقون لجارهم ما عقدوه من عهدٍ أو حلف(٣٣) ، وثالثة بأنَّ (حِبَال) آل لأي لما اتصلت بحباله شَدَّتْها وقَوَّتْها بعد أن كانت واهية(٣٤) .

ونعود إلى البائية ، فلم يفرغ الحطيئة من تمجيد آلِ لأيٍ فيها وصنيعهم تجاهه ، بل مضى ينافح أقوى منافحة وأشَدَّها عن جاره بغيضٍ مستخدماً كل ما أنجدته به بديهته وعارِضَتُه ولَسَنُهُ في جدالٍ عنيد . فما ذنب بغيض أن أجار أمرأ بائساً جاء يحدو أباعِرَ هزِيلاتٍ ؟ امْرَأً ساقته سَنَةٌ عَجْفَاءُ شديدةُ الإِجْدَابِ إلى مُبارَحَةِ موطنه ؟

ثم يتوجه بالخطاب إلى بغيضٍ نفسه فيقول : أيّ جُرْم اجْتَرَمْتَ لِتُلام عليه ؟ أتُلاَمُ على جودك بالقوت لِجارٍ كان أشرف على الرَّدَى ، فلم تطق نفسك السمحة أن تدعه للداهِيَةِ الدَّهْياءِ فَتُسَبَّ به القبيلةُ العَوْفِيَّةُ كلُّها (وهم قومُكَ وقومُ الزِّبرقان جميعاً) ؟ . ذلك الجار ــ يعني نفسه ــ الذي أبدى له الجفاءَ أناسٌ ضَيَّعُوا مفاخِرَ قَوْمِهِمْ وحَسَبَهُمْ ، فأَخْرَجْتَهُ من قَعْر ركيَّةٍ مظلمةٍ لولا إخراجُك إياه منها لَلَبِثَ في بطنها دهوراً طِوَالاً :

ما كان ذَنْبُ بَغِيضٍ لا أبا لَكُمُ   في بائسٍ جاء يَحْدُو أَيْنُقاً شُسُبَا ؟
حَطَّتْ به من بِلادِ الطَّوْدِ عاريةٌ   حَصَّاءُ لم تَتْرِك دون العَصَى شَذَبا
ما كان ذَنْبُكَ فِي جارٍ جَعَلْتَ لَه   عيشاً ، وقد كان ذاقَ الْمَوْتَ أو كَرَبا
جارٌ أَبَيْتَ لِعَوْفٍ أن يُسَبَّ بِهِ   أَلْقَاهُ قومٌ جفاةٌ ضَيَّعُوا الحَسَبَا
أَخْرَجْتَ جارَهُمُ من قَعْرِ مُظْلِمَةٍ   لو لم تُغِثْه ثَوَى في قَعْرِها حِقَبَا(٣٥)

وفي نشيدِ هذا الشاعرِ السِّينِيِّ الشهير الذي مكَّنَهُ من غَلَبَة الزِّبْرِقان فلم يجبه على أنه شاعر قد أجاب كلاً من الشاعرين : المخَبَّلِ السَّعْدِي وعمرو بن الأَهْتَم لما هَجَوَاهُ ،

وإن لم تكن له الغَلَبَةُ عليهما(٣٦) ، في هذا النشيد ظلّ الحطيئة يغنّي على النَّغَمِ عَيْنِه ، ويعيد غناءه ويُبْدِئُه بلا فُتُور ولا إعياء ، مُلِحاً إلحاحاً عنيدا ، مُلْحِفاً أيَّمَا إلْحَافٍ على الأفكار نفسها التي عَرَضْتُ لك في قصيدتيه الهمزيةِ والبائيةِ اللتين رأيت ما أتى به فيهما من دفعٍ عن بغيضٍ وآلِ بغيض .

لكنَّ ذلك النشيد تفرّد بالهجاء الشخصيِّ الكاوي للزِّبرقان ، وحسبك منه « بيتُ القَصِيد » ذاك الذي ردَّدَتْه شِفاهٌ كُثُرٌ ، وفيه وُصِفَ المَهْجُوُّ بأنه « مُطْعَمٌ مَكْسُوٌّ » مثلُ المقيماتِ بالخُدُور ، رَبَّاتِ الحِجال ، وليس أهلاً لأن يُطعِمَ غَيْرَه أو يَكْسُوَهُ ! . ذلك البيت الذي بلغ من إيلامه للزبرقان أن تَقَدَّم بالشَّكاةِ من قائله إلى وليِّ الأمر عُمَرَ رضي الله عنه ، ولم يُجْدِ سَعْيُ عُمَرَ إلى إيهامه بأنْ ليس في مضمون البيت ما يتجاوز العتاب الصرِّف ، فقال : « أوَ مَا تَبْلُغُ مُروءَتِي إلا أن آكُلَ وأشْرَبَ ؟ » فاستعان عمر بحسَّانَ رضي الله عنهما ليُدْلِي بِدَلْوه في الشَّأن عسى أن يَخِفَّ وَقْعُهُ على الزِّبْرقان ، لكنَّ حسَّانَ صَيْرَفيَّ الشِّعْرِ لم يملك إلا أن صَدَعَ بكلمة حَقٍّ لم تُخَفِّفْ شيئاً من حِدَّة اغْتِياظِ الشَّاكي ، بل ضاعفتها أضْعافاً ، مما لم يفتح لِعُمَرَ باباً يُخْرِجُ الحطيئةَ منه فَحَكَم بعقابه(٣٧) .

في تلك القصيدة يتساءل كما تساءل في القصيدة البائيَّة مستنكراً فيقول : أيُّ جُرْم جَرَّهُ بغيضٌ ، ويْحَكُم ، أن آوى إنساناً ألفاه في حالٍ بئيسٍ ، ومقامٍ وَعْرٍ ، قد أتى يحدو بُعَيِّرَهُ في آخر الرَّكْب ، لا يَقْوَى ، لِوَهْنِهِ وهُزَال مَطِيَّته ، على التَّقَدُّم مِثْلَ سواه ، وكان في جوار أناسٍ أظهروا له الهوان ، وأذاقوه المذلَّةَ ، وتركوه بين أجداثٍ لا حياة فيها ، لأنهم بَرِمُوا من إطعامه فآذَوْهُ أقسى إيذاءٍ (هَرَّتْهُ كِلابُهُمُ وَجرَّحُوهُ بِأنْيابِ وَأضْرَاسِ) ؟

ثم بعد هذا الاتهام العنيف لهم بإساءة معاملته خاطبهم مؤكّداً عذره في التحول عن دارهم إلى دار بغيض ، فقد مَهَّلَهُمْ وأمْهَلَهُم رُوَيْداً بلا طائل ، حتى عِيلَ صَبْرُه ، وكان قد شاء أن يَخُصَّهُمْ بالمديح من بين الناس فما أجدى ذلك فيهم ، وتجلَّى له ألاَّ خير له يرجى من لُبْثِهِ فيهم ، فهم كالخَلِفَة التي جفَّت أخلافُها فلا تَدِرُّ حَلِيباً مَهْما مُسِح ضَرْعها وأُبِسَّ . فماذا يصنع لمَّا تَبَدَّى له أنهم كامرأةٍ فَرِكَتْ بَعْلَها فليست تطيق لقاءه وخِلاطَهُ والبقاء معه ؟ إنه لما رأى ما كانوا يخفون في أنفسهم ، ولم يجد من بينهم من يحنو عليه عزم على القنوط التامِّ منهم ومن نفعهم ، وتركهم وديارهم بلا أسى أو أسف :

ما كان ذَنْبُ بَغِيضٍ ، لا أبا لَكُمُ   في بَائِسٍ جاء يَحْدُو آخِرَ النَّاسِ ؟
ما كان ذَنْبُ بَغيضٍ أنْ رَأى رَجُلاً   ذا فاقةٍ عاش في مُسْتَوْعِرٍ شَاسِ ؟(٣٨)
جاراً لقوم أطالُوا هُونَ مَنْزِلِه   وغادَرُوه مقيماً بين أرْمَاسِ
مَلُّوا قِرَاهُ وهَرَّتْهُ كِلابُهُمُ   وَجرَّحُوهُ بأنْيَابٍ وَأضْرَاسِ
لقد مَرَيْتُكُمُ لو أنَّ دِرَّتَكُمْ   يوماً يَجِيءُ بِها مَسْحِي وإبْسَاسِي(٣٩)
وقد نَظَرْتُكُمُ إعْشَاءَ صَادِرَةٍ   لِلْخِمْسِ طال بها حَوْزِي وتَنْسَاسِي(٤٠)
فما ملكت بأن كانت نفوسُكُمُ   كَفَارِكٍ كَرِهَتْ ثَوْبِي وإلْبَاسِي
حتى إذا ما بدا لي غَيْبُ أنْفُسِكُمْ   ولم يكن لِجراحي فيكُمُ آسِي(٤١)
أزْمَعْتُ يَأْساً مُبِيناً من نَوَالِكُمُ   ولن ترى طارداً لِلْحُرِّ كاليَاسِ(٤٢)

وفي قصيدة أخرى ذَمَّ الزِّبْرِقان لتَخَلِّيه ـ زَعَمَ ـ عنه ، ودعاه إلى الكَفِّ عن ذمِّ آل شمَّاسٍ فشتّان بينه وبينهم في العِزّ ، وهم الذين أطعموا جارَهُ (العَيْمَان) الشديد الاشتهاءِ لِلَّبن من أطايِب لُحوم الإبِل وسقوه من خالص ألبانها حتى صلحت حاله ، ونما اللحم فكسا عظامَه :

قَرَوْا جارَكَ العَيْمَانَ لمَّا تَرَكْتَهُ   وَقَلَّصَ عن بَرْدِ الشَّرابِ مَشَافِرُهْ
سَنَاماً ومَحْضاً أنْبَتَا اللَّحْمَ فاكْتَسَتْ   عِظامُ امْرِيءٍ ما كان يَشْبَعُ طائِرُهْ(٤٣)

إنَّ بغيضاً حَتْماً ما كان في عين الحطيئة ببغيضٍ فقد قلّده شتى عقود الثناء ، كما تبيّن فيما سبق . ومما لم يسبق وصفه بالجود وإجزال العطايا لجاره ، فإنه يمنحه النُّوق السِّمانَ الغِزارَ الألْبانِ ، الكثيراتِ العَدَدِ حتى إنها لتحتاج إلى عدد من الرِّعاءِ (العُبْدَانِ) لِيَرْعَوْها :

هو الوَاهِبُ الكُومَ الصَّفَايا لِجَارِهِ   يُرَوِّحُها العُبْدَانُ في عازِبٍ نَدِي(٤٤)

وهذا الرجل وقومه تلبث جارتهم فيهم مُغْنَاةً مكْرَمةً فلا يقودها العوز إلى نحر نعجتها لتَطْعَمَ وتُطْعِمَ بنيها ، ولن تجد نفسها ـ ما دامت في كنفهم ـ في هذا الموقف . وهي ، لذلك ، طيّبة الحديث عنهم ، تثني عليهم ، وتخبر بما تلقاه منهم من الجميل ، وهم يعفون عنها ولا يدنّسون شرفها :

وما تَتَأمُ جارَةُ آلِ لأْيٍ   ولكن يَضْمَنُون لها قِرارَها(٤٥)
لَعَمْرُكَ إنَّ جَارَةَ آلِ لأيٍ   لَعَفٌّ جَيْبُها حَسَنٌ ثَنَاها(٤٦)

إنك إذا جُسْتَ خلال شعر هذا الشاعر خلته قد أفرغ ما في جعبته من ثناء بالمعاملة الحسنى للجار وغيرها من المحامد على بغيض وبني لأي ، وأفرغ ما فيها من ذمٍّ وانتقاص على الزِّبْرِقان وبني بَهْدَلة ، ولم يُبْقِ لنفسه مقالاً في سوى هؤلاء حول هذه القيمة الخُلُقِيَّة السامية . لكنك بعد يسير من تقصٍّ لا تعدم شيئاً من ذلك .. فها هو يدثّر ممدوحه المعروف علقمةَ بْنَ عُلاثة ببردة مدحِيَّةٍ مما أثنى عليه فيها « مناعَةُ جانِبِ جارِهِ لِمَنَاعَةِ جانِبِهِ » ، وكرمُهُ الفيَّاضُ حتى إنه ليهب لجارِهِ ذوات الأَسْنِمَةِ الضِّخامِ ، والألبانِ الغِزارِ ، وكرائِمَ الجياد :

فتى لا يُضَامُ الدَّهْرَ ما عاشَ جارُهُ   وليس لإدْمان القِرَى بِمَلُولِ
هو الواهِبُ الكُومَ الصَّفَايَا لِجَارِهِ   وكُلَّ عَتِيقِ الحُرَّتَيْنِ أسِيلِ(٤٧)

ويمدح بني ذُهْل بن شيبان بن بكر بن وائل بأنهم يكفلون لجارهم مالَهُ ، فيعوّضونه عما يَنْفَقُ من مواشيه إلى أن ينبت العشب فتخصب الأرض ، ويزول عن الحيوان خطر التلف . وهو معنى طرقه سابقاً في إحدى مدائحه لِلْأَبِيِّين(٤٨) :

الضَّامِنين لمال جارِهِمُ   حتى تَتِمَّ نَواهِضُ الْبَقْلِ(٤٩)

ومدح رجلاً اسمه يزيد بن مُخَرَّم الحارثي بالمنعة والوفاء بعقد الجوار بحيث لا يتخلى عن جاره (ما جَارُهُ في النَّائِباتِ بمُسْلَمِ)(٥٠) . كما مدح عيينة بن حصن الفَزَارِيّ مُضْفِياً عليه نعوتاً كريمة منها أنه غير متخاذِلٍ عن جاره ، أو ضعيفِ العونِ له ، والدَّفعِ عنه : (ولا واهِنٌ عن جارِهِ مَرِسُ الحَبْلِ)(٥١) .

واستجار ببني نهشل فأكرموه ، وذهب من عندهم حامداً لهم ، وسجّل ما أوجسه في نفسه من اغتباط بما لاقاه منهم ، رامزاً لذلك كله بإكرامهم راحلَتَهُ التي « لم تَذُمَّهم » ولم تكره مواطنهم لمّا برحتها، لأنها نالت فيها ما اشتهت ، وكانت تسرح في أفنائهم وتمرح ما شاءت من سَرْحٍ ومَرْحٍ . وإذا كان يصيب غيرها من أباعر الآخرين الشَّلّ من هول ما تلقاه من فَزَع وفَرَقٍ فإنّها بمنأى عن الضيم والأذى يمنعها من ذلك فرسانٌ أكارم :

لَعَمْرِكُ ما ذَمَّتْ لَبُوني ولا قَلَتْ   مساكنها من نَهْشَلٍ إذ تَوَلَّتِ
لها ما اسْتَحَبَّتْ من مَسَاكِنِ نَهْشَلٍ   وتَسْرَحُ في ساحاتِهِمْ حيث حَلَّتِ
ويمنعها من أن تُضَام فوارسٌ   كِرامٌ إذا الأخرى من الرَّوْعِ شُلَّتِ(٥٢)

وغني عن القول أنه حين تحدث عن (لَبُونِه) لم يك يعنيها وحدها .

أما بنو بجاد العبسيون فلم تشفع لهم لديه آصرة الرّحم (هم ـ كما ترى من قبيلته عبس)، فسلقهم بلسانه الحديد، وما في هذا من غرابة فمثله لا يَبَرُّ قريباً لقربه لأَنَّ علاقته بغيره مستندةٌ على الانتفاع، فمتى مَسَّ مصلحتَهُ المادِّيَّةَ ماسٌّ بات غرضاً لنباله. وأبرز ما عابَهُمْ به الضعفُ والذُّلُّ وهوانُ جارِهِم لعدم رفعهم الظلم عنه . وعيَّرهم بجارٍ لهم أسديٍّ من بني فقعس لم يُجْدِهِ هو أيضاً لديهم لا الرَّحِمُ ولا الجوار قُلامَةَ ظُفْرٍ في إحدى المعارك ، وينقم عليهم لتقصيرهم هذا . وهم ـ لا شك مستحقون لِلَّوم أكثر من استحقاق الحطيئة له في عدم رَعْيِهِ فيهم (إلاًّ ولا ذِمَّةً) فقد عاملهم بِسُنَّةٍ هم سارُوها (وأَوَّلُ راضٍ سنَّةً من يَسِيرُها) :

رَهْطُ ابْنِ جَحْشٍ في الخطوب أذِلَّةٌ   دُسْم الثِّيابِ ، قَنَاتُهُمْ لم تُضْرَسِ
بالهمز من طول الثِّقافِ ، وجارُهُمْ   يُعْطي الظُّلاَمَةَ في الخطوب الحُوَّسِ
قَبَح الإلـه قبيلـةً لم يَمْنَعُـوا   يوم المُجَيْمِرِ جارَهُمْ من فَقْعَسِ(٥٣)

ومدح بني كليب ببضعة أبيات ، وهؤلاء القوم بخاصة ليس لهم في الشعر القديم مدح كثير إذا أخرجنا فخر ابنهم جرير ، بل إنّ أبا عبيدة ذهب إلى القول بأن أحداً لم يمدحهم غير الحطيئة في أبياته تلك(٥٤) ، لكن جريراً أمال الميزان إلى جانبهم في فخره الغزير بأمجادهم الصحيحة والمدّعاة وإن لم يك لمدحه إياهم من الوزن ما لمح غيره لهم لو جرى.

نعتهم الحطيئة بإكرام جارهم ، وتقديمه ، والحرص الشديد عليه على ألا يَمَسَّه ما يكره ، وأن يظل لديهم ممتنعاً لا تصل إليه يد بسوءٍ . وهو ، إن مُدَّتِ الأيدي إلى الزاد ، أول من يستأنف الأكل ليستمتع بأطايب الطعام. وهم (طَيِّبو معاقِدِ الأُزُرِ) لا يدور بخلد أي منهم أن يدنُوَ من جارته دُنُوًّا مريباً .

وفي الوقت عينه عضَّ بنابه قوماً يُدْعَوْنَ بني زهير بن جَذِيمَةَ ووصفهم بإهمال جارهم فهو « ضعيفُ حَبْلٍ » ليس يمتنع من أي مُؤْذٍ .

ويرمي الحطيئة بذِكْرِهِ هؤلاء مع بني كليب ، ومدح بني كليب وذَمِّهم متّخذاً معياراً واحداً للمدح والذم معاً هو « معاملة المستجير » إلى المخايرة بينهما والمفاضلة التي نهاها عنه عمر رضي الله عنه ، كما ذكرنا ، ولم يبد أنه احْتَفَلَ بذلك النهي . وهو في موازنته

يفعل تماماً ما يُفْعَل في المسرح حديثاً حين يراد إبراز جوانبَ غيرِ إيجابيَّةٍ في شخصية فتوضع معها شخصيةٌ أخرى منافِرَةٌ لها شكلاً أو مزاجاً أو سلوكاً أو غايةً ، وهو ما يسمى بـ « التقابل » :

ألم تَـرَ أنَّ جـارَ بَنِـي زُهَيْـرٍ   ضعيفُ الحَبْل ليسٍ بذي امْتِناعِ ؟
وليس الجارُ جارُ بني كلـيب   بِمُقْصَّى في المَحَلِّ ولا مُضَاعِ
هُـمُ صَنَـعٌ لجارِهِـمُ ولـيسَتْ   يَدُ الخَرْقاء مثل يَـدِ الصَّنَّـاعِ
ويَحْـرُمُ سِرُّ جَارَتِهِـمْ عَلَيْهِـمْ   وَيَأْكُلُ جارُهُمْ أُنُـفَ الـقِصَاعِ
وجارُهُـمُ إذا مـا حَـلَّ فِيهِـمْ   على أَكْتَـافِ رَابِيَـةٍ يَفَـاعِ(٥٥)

ثانياً : إيواء المستجير في شعر جرير :

بدا مما سلف أن (القضية) التي استأثرت بأوفر قسط من معالجة « إيواء المستجير ومعاملته » لدى الحطيئة هي قضية حلوله جاراً على الزِّبرقان بن بدر ثم على بني لأي ابن شمَّاس بن قُرَيع الذين كان يقال لهم بنو أنف الناقة ، وكانوا يستخذون إذا سمعوا هذا اللقب حتى قال فيهم بيتاً بات شهيراً وازن فيه بين الأنف والذَّنب فصاروا (يتطاولون بهذا النسب ويمدُّون به أصوائهم في جَهَارَةٍ)(٥٦) . هذه القضية شغلته وشاء أن يشغل بها الناس .

وسيَتَبَدَّى مما هو مقبل أن جريراً أيضاً شغلتْهُ في حديثه عن « الجار ومعاملته » قضيةٌ واحدةٌ وأراد أن يشغل بها الناس ، فصرف إليها جُلَّ قولِهِ في الموضوع ، ولم يَكِلَّ لسانُه من كثرة إعادة الحديث عنها ، وتشقيق المعاني فيها ، تماماً كما لم يسأمِ الحطيئةُ من إعادة القول في قضيته تلك . تلكم هي قضية « إخفاق بني مجاشع قومِ الفرزدق في حماية الزُّبَيْر بن العوام رضي الله عنه من القتل ، أو الأخذ بثأره إذ قتل » . وكان لما تخلَّى الناسُ عنه وعن طلحة بن عبد الله رضي الله عنهما يوم الجمل مضى سائراً على قدميه يريد مكة ، فتعقَّبَه عمرو بن جرموز المُجَاشِعِيّ وقتله ودفنه في وادي السباع(٥٧) .

وكما أنَّ تفريط الزِّبرقان في جنب الحطيئة موضعُ شكٍّ ، بل إن الحطيئة نفسه لم يُرِدْ ، كما ذكرنا ، في بادئ الأمر ، تحميل الرجل وزر سواه (امرأتِهِ أو أُمِّهِ) فكذلك الحال نوعاً ما في أمر جوار الزبير لمجاشع ، وإن ثبت حقُّهُ كضيفٍ لأنه كان يعبر

أرضهم ، وبات في منزل أحدهم ، وقاتِلُهُ منهم . لكنّ جريراً (ينسبهم إلى أنهم غدروا به لأنهم لم يدفعوا عنه)^(٥٨) .

وليس ، بطبيعة الحال ، بمستنكر على جرير الذي يَتَسَقَّطُ هفواتِ المجاشعيين، ويقتنص سقطاتِهِم أن يَعُدَّ مقتل الزبير بيدٍ مُجَاشِعِيَّةٍ ، وعلى تُرابِ مُجاشِعِيٍّ مخزاةً كبرى لا تُمْحَى من وجوههم جميعاً .

لقد نَفَثَ في هذه المسألة ونَفَخَ بِمِنْفَاخِ بيانِهِ الخالب حتى أحال خيط الحقّ فيها حَبْلاً متيناً ، فبدا وكأنَّ بين الزُّبير رضي الله عنه وبين مجاشع عهداً أَوْثَقَ قد آلَوْا على أنفسهم ألاَّ يَخِيسُوا به (ما بَلَّ بَحْرٌ صُوفَةً ، وأقام رَضْوَى في مكانِهِ) ، كما صنع شبيهه الحطيئة في تقريع ابن بدر وبني بَهْدَلَةَ قومِهِ على تضييعه و(تضريسه بأظفارٍ وأنياب) ، والحقُّ أن ما انتابه منهم أخفُّ من أن يُسِيل أَقَلَّ دَمٍ .

وليس من غايتنا أن نهوِّن من شأن الغدر بالزبير عليه رضوان الله ، أو أن نخفِّف من بشاعة فعلة ابن جرموز وشناعتها ، لاسيما إذا عرفنا أنه، كما ذكر البغدادي في خزانة الأدب ، أبدى له الكرم والوُدَّ ومَحْضَ النُّصح ، فقد أضافه ثم قال له : « دون أهلك فيافي ـ هكذا ـ فخذ نجيبي هذا وخلِّ فرسَكَ ودِرْعَكَ فإنهما شاهدان عليك بما تكره ، ولم يزل به حتى ترك عنده فرسَهُ ودرْعَهُ وخرج معه إلى وادي السباع ، وأراه أنه يريد مسايَرَتَهُ ومُؤَانَسَتَهُ ، فقتله غِيلةً وهو يصلِّي »^(٥٩) . فقد كشّر له عن أنيابه ، وخانه بعد أن استأمنه وذلك جرم منكر رهيب ، ما في ذلك من ريب ، بل إنّا لا نُلْفِي في شعر الفرزدق نفسه تسويغاً له ، أو تنصُّلاً منه . لكنَّ جريراً ـ فيما يبدو لنا ـ لام على الجريمة لوماً شديداً طويلاً من لم يكن من جناتها ، ووصم مجاشعاً كلها بالغدر ، وإنما غدر منهم رجلٌ واحد .

لقد أطال جرير الضرب بمطرقته على السَّنْدان نفسه . وهو ، وإن كان لم يكد يَدَعُ منقصةً صغيرةً ولا كبيرةً إلا رمى بها بني مجاشع مع تكرير كثير مُسْئِمٍ ، إلاَّ أنَّ هذه المسألة بدت ، كما سترى ، طاغيةً على ما عداها حتى إنه أثارها في ديوانه فوق ثلاثين إثارةً !

وإذا كان من عادة الحطيئة ، كما رأينا ، أن يوازن ويخاير بين مهجُوِّيهِ فإنَّ جريراً أيضاً قد سلك ذلك السَّبيل فأكثر من الموازنة لما يعلمه فيها من شدة إيجاعٍ للمهجوين بإشعارهم بتقصير أيديهم عما تصل إليه أيدي سواهم من العشائر العربية الكريمة والأفراد

الأماجد المدركين لهذا العرف الخلقيّ العربي الحسن ، المحافظين عليه ، العاضّينَ بالنواجذ على (حَبْلِ الجار) غير المفرِّطين بحقِّهِ فِي الأمن على نفسه وأهلِهِ ومالِهِ وعِرْضِه . فيوازن فِي قصيدة تامَّةٍ ، قصرها على هذه المسألة ، بين بني عقال المجاشعيين وبين الأزد الذين لمَّا ثار ثائرون على زيادِ بْن أبيه ، وهو والٍ على البصرة ، ولجأ إلى أحدهم ، واسمه صَبِرَةُ بن شيمانَ ، لقي منه زياد الحماية التي نَشَدَ(٦٠) ، فجارهم ظَلَّ حيًّا عزيزاً ، وفنِيَ جار المجاشعيين وانسحق .. ويمضي فِي الموازنة بينهم وبين عدد كبير من الأفراد والأقوام والعشائر فيؤكد أن الزبير لو استنجد بأي منهم ، عوض الاستنجاد ببني عقال لَلَبَّوْا نداءه وأغاثوه وأعانوه على ابن جرموز فهم جميعاً خير منهم وأوفى(٦١) .

ويؤكّد ، فِي مواضع أخرى ، على نحو مماثل ، أنَّ الزبير لو استجار ببني رياح ، وهم من يربوع قومِهِ ، أو ببني سعد ، أو بمخرِّق بن شريك الحنفي ، أو بقيس .. بل لو استجار بكائِنٍ مَنْ كان على ألاَّ يكون مُجَاشِعِيًّا لما تُرِك ونِدَّهُ دونما إنجاد :

• ولو فِي رِياحٍ حَلَّ جارُ مُجَاشِعٍ   لما بات رَهْناً لِلْقَلِيبِ المُعَوَّرِ(٦٢)
• وإنَّ الحواريَّ الذي غَرَّ حَبْلُكُمْ   له البَدْرُ كَابٍ والكَوَاكِبُ كُسَّفُ
ولوِ فِي بني سَعْدٍ نزلتَ لما عَصَتْ   عوانِدُ فِي جَوْفِ الحَوَارِيِّ نُزَّفُ
فهلاَّ نَهيْتُمْ يابني زَبَدٍ اسْتِها   نُسُوراً رأت أَوْصَالَهُ فهي عُكَّفُ
فَلَسْتَ بِوَافٍ بالزُّبَيْرِ وَرَحْلِهِ   ولا أنت بالسِّيدَانِ بِالْحَقِّ تُنْصِفُ(٦٣)
• ياليت جارَكُمُ اسْتَجَارَ مُخَرِّقاً   يوم الخُرَيْبَةِ والعَجَاجُ يَثُورُ(٦٤)
• وقَيْسٌ ، يافَرَزْدَقُ ، لو أجاروا   بني العَوَّام ما افْتُضِحِ الْجِوَار
إذاً لَحَمَى فَوَارِسُ غَيْرُ مِيلٍ   إذا ما امْتَدَّ فِي الرَّهَجِ الغُبَارُ
وكَرُّوا كُلَّ مُقْرَبَةٍ سَبُوحٍ   وطِرْفٍ فِي حَوَالِبِهِ اضْطِمَارُ(٦٥)
• لو غَيْرَكُمْ عَلِقَ الزُّبَيْرُ ورَحْلُهُ   أدَّى الجِوَارَ إلى بَنِي العَوَّامِ(٦٦)

وربّما تمنى أن الزبير استنجد ببعض فروع قوم جريرٍ يربوعٍ ، وخصّ (عُبَيْداً) و(جَعْفَرَ) ثم عمَّ أيًّا من بني رياح الشُّمِّ الذين أمارات الرجولة عليهم باديةٌ :

فيالَيْتَهُ نادَى عُبَيْداً وجَعْفَراً   وشُمًّا رِياحِيِّينَ شُعْرَ السَّوَاعِدِ(٦٧)

أما حين يأتِي جرير ليوازن بين بني عقيل أو مجاشعٍ وبين قومه يربوع أو كليب فهنا المزج بين الهجاء والفخر بالتأكيد الشديد على البون الشاسع بين أولئك وأولاء :

(فلو استجار بنا حواريّ رسول الله ﷺ لما لقي ما لقي بل لأغثناه ونصرناه وآزرناه ، ولما تركناه طعمة لذوات المخالب والأنياب ، ولسمع صليل أسلحتنا نهبّ لنجدته ، ولدافع عنه كلُّ باسل ، فكان المقتولُ عدُوَّهُ لا هو . ولو حلَّ فينا لما يئس من الإياب .. ولآب رحله الذي مُزِّق كلَّ مُمَزَّق مجتمِعاً .. ولو حلّ فينا رحله لعاد سليماً .. ولمضينا به بعيداً عن متناول من يبغيه شرًّا فأصبحت بينه وبين عدوِّهِ تنائِفُ يَتلألأُ سرابها .. ولما باتت نساءُ قريش يتناوبن النُّواح عليه) :

● لو كُنْتَ حين غُرِرْتَ بين بيوتِنَا   لَسَمِعْتَ من صوتِ الحَدِيدِ صَلِيلا
لَحَمَاكَ كلُّ مُغَاوِرٍ يَوْمَ الْوَغَى   ولكان شِلْوُ عَدُوِّك المأْكُـولا(٦٨)
● لـيت الزُّبَيْرَ بِنَا تَلَبَّسَ حَبْلُـهُ   لـيس الوَفِيُّ لِجَارِهِ كالغَـادِرِ(٦٩)
● ولـو مِنَّـا فَتَاتُكُـمُ لَغِرْنـا   ولـو عـاذَ الزُّبَيْرُ بِنا وَفَيْنـا(٧٠)
● ألا يَالَقَوْمِ لا تُهَذْكُمْ مُجَاشِعٌ   فأُصْلَبُ منها خَيْزُرَانٌ وخِـرْوَعُ
فهم ضَيَّعُوا الْجَارَ الْكَرِيمَ ولا أرى   كَحُرْمَةِ ذاكَ الجارِ جاراً يُضَيَّعُ
تقولُ قُرَيْشٌ بعد غَدْرِ مُجَاشِعٍ :   « لَحَى اللهُ جِيرانَ الزُّبَيْرِ » ورَجَّعُوا
فلو أنَّ يَرْبوعاً دعا إذ دَعَاهُمُ   لآبَتْ جميعاً رَحْلُهُ المُتَمَـزَّعُ(٧١)
● ولو بات فينا رَحْلُه ، قد عَلِمْتُمُ   لآبَ سَلِيماً ، والضَّبَابَةُ تَنْجَلِي(٧٢)
● ولـو سارَ الزُّبَيْرُ فَحَـلَّ فِينـا   لما يَئِسَ الزُّبَيْرُ مـن الإيـابِ
لأَصْبَحَ دُونَـه رَقَمَـاتُ فَلْـجٍ   وغُبْرُ اللامِعاتِ من الجِـدَابِ
وما بات النَّوَائِحُ من قُـرَيْشٍ   يُرَاوِحْـنَ التَّفَجُّـعَ بانْتِحَـابِ(٧٣)

ويسير جرير في جادَّته هذه لائماً مجاشعاً فيصفهم بأنهم ظلُّوا يدورون ويرغون كما تدور ضباعٌ حول جُحورها دون أن تفعل طائلاً . ويلتفت بالخطاب إلى الفرزدق فيقول : لو كنتَ منَّا لكنت وفيًّا ولما توزَّعَتْ لحْمَ جارِكُمُ الهوامُّ وجارحاتُ الطير التي لم يكن منكم مَنْ فيه ذَرَّةُ خير فيطردها عنه . ثم يؤكد ، كما أكد في أبياته الآنفة الذكر ، أن لو عاقد هو وقومه يربوعٌ الزُّبَيْرَ لكان في مناة عن الأذى ، كعُقابٍ في ذروةٍ شاهقة ، أو كوعل مستعصم في قُنَّةِ جبلِ (عَطَالَةَ) الشامخ ، ولَحَمَوْهُ بالجياد الناحطات ، والقنا المتهزهزات ، ولكسَّروا عوالي الرماح في نحور أعدائه ، ولشَقَّ الفوارس اليربوعيون رهج القتام والغبار لنصرته فعادت خيلهم مجرَّحةً تسيل دماؤها لخوضها قتالاً في سبيل إغاثته ، وذلك رهبة من لوم قريش لهم .

وهكذا يتفنَّن جرير في تشقيق المعاني حتى لا يدع مجالاً لريب في أنّ يربوعاً هيهات أن تخذل جارها لاسيما ذلك الجار الصحابيّ الطاهر حواريّ النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم :

● تراغَيْتُمُ يوم الزُّبَيْر كأنكُمْ   ضِباعٌ أصَلَّتْ في مَغارٍ جُعُورَها
ولو كنتَ مِنَّا ما تَقَسَّم جارَكُمْ   سِبَاعٌ وطَيْرٌ لم تَجِدْ من يُطِيرُها
ولو نحن عاقَدْنا الزُّبَيْرَ لقيتَهُ   مكانَ أُنوقٍ ما تُنالُ وُكُورُها(٧٤)
● ولو عَلِقَتْ حَبْلَ الزُّبَيْرِ حِبالُنا   لكان كَناجٍ في عَطالَةَ أعْصَما(٧٥)
● لو حَلَّ جارُكُمُ إلَيَّ مَنَعْتُه   بالْخَيْلِ تَنْحِطُ والْقَنا يَتَزَعْزَعُ
لحَمَى فَوارِسُ يَحْسُرُونَ دُرُوعَهُمْ   خَلْفَ المَرافِقِ حين تَدْمَى الأَذْرُعُ(٧٦)
● ودعا الزُّبَيْرُ مُجاشِعاً فتَرَمَّزَتْ   لِلْغَدْرِ أَلْأَمُ آنُفٍ وسِبَالِ
يالَيْتَ جارَكُمُ الزُّبَيْرُ وضيفَكُم   إيَّايَ لَبَّسَ حَبْلَه بِحِبالي
اللهُ يَعْلَمُ لو تناوَلَ ذِمَّةً   منَّا لَجُرِّعَ في النُّحُورِ عَوالِي(٧٧)
● ولو نَزَلَ الزُّبَيْرُ بنا لَجَلَّى   ذِيادُ فَوارِسٍ رَهَجَ القَتَامِ
لخافُوا أن تَلُومَهُمُ قُرَيْشٌ   فَرَدُّوا الْخَيْلَ دامِيةَ الكِلَامِ(٧٨)

والواقع أن أسلوب الموازنة أو المفاضلة هذا الذي أكثر منه جرير ، كما أكثر منه الحطيئة قبله ، سار عليه غيرهما من الشعراء الأقدمين ، فكثيراً ما يرد هذا المعنى (إن فَرَّ غيره فهو الثابت المقدام ، وإن ضَنَّ بالطعام فهو المطعام ، في الشّتوات) من نحو قول الشاعر عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، أو السموأل :

وإنَّا لَقَوْمٌ لا نَرى القَتْلَ سُبَّةً   إذا ما رَأَتْه عامِرٌ وسَلُولُ
يقرِّبُ حُبُّ الموت آجالَنَا لَنَا   وتكْرَهُهُ آجالُهُمْ فَتَطُولُ(٧٩)

ومادام الزبير رضي الله عنه قرشيًّا فَلِمَ لا تُقْحَمُ قريشٌ كلها في المسألة ويُظْهَرُ استياؤُها من صنيع مجاشعٍ ونقمتُها عليهم ؟ وقريشٌ ، لما لها من منزلة ومقام كريم بين أحياء العرب كافة في الجاهلية أوّلاً ، ثم ازدادت تلك المنزلة وذلك المقام رفعةً في الإسلام لحدوث النبوة فيهم ، لرأيها وزنٌ وثِقَلٌ ، فلِمَ لا (يَسْتَغِل) جرير هذا الرأي لصالح وجهة نظره وهو يماري نِدَّه الفرزدقَ وقومَه ؟ ولم لا يهوِّل الأمر بادِّعاء حَنَقِ قريشٍ بِرُمَّتها على مجاشع لغدرها وخذلانها جارَها ؟

إن ذلك لم يغب عن بال جرير . فقد كان يُقْحِمُ قريشاً كلَّها في ذلك الشأن ويظهرها خصماً لمجاشع كلما واتته نهزة ، فتارة يجعل قريشاً تستنكر على الفرزدق الفخر بعد ما جرى لجاره وجار قومه ، وحيناً ينطقها بما لم تنطق به من الموازنة بين الفرزدق في غدره المُدَّعَى وبين وفاء رجلٍ من كليب بين يربوع قومِ جرير يُدْعَى (حَزْناً) حمى ضيفاً نزل به من قومه (بني جناب) لما أرادوا قتله :

يقول ذَوُو الحُكُومَة مِن قُرَيْشٍ　　أَتَفْخَرُ بَعْدَ جارِكُمُ الـمُصَابِ ؟
غَدَرْتَ وما وَفَيْتَ وَفَاءَ حَزْنٍ　　فَأُوْرِثْتَ الْوَفَـاءَ بَنِي جَنَـابِ(٨٠)

وتارة يجعل قريشاً تلوم الزُّبير رضي الله عنه على استنجادِهِ بمجاشع المعروفين برغائهم الذي لا طائل من ورائه :

- وقالتْ قُرَيْشٌ للحَوارِيِّ جارِكُـمُ　　أَرَغْوَانَ تَدْعُو لِلْوَفَاءِ وضَوْطَرَا(٨١) ؟

- وتارة يؤكد أن قريشاً تحدثت عن غدرهم في المشاعر المعظمة ، فسُمْعَتُهُمُ الرديئة قد بلغت آذان الحُجَّاج والمعتمرين :

ياشَبَّ قد ذَكَرَتْ قُرَيشٌ غَدْرَكُمْ　　بين المُحَصَّب من مِنًى وثَبِيرِ(٨٢)
تَرَكَ الزُّبَيْرُ على مِنًى لِمُجَاشِعٍ　　سُوءَ الثَّنَاءِ إذا تَقَضَّى الْمَجْمَعُ(٨٣)

أو أنَّ النائحاتِ القرشيّات رَدَّدْنَ على الزُّبَير أسماء سادةِ مجاشع وأجداد الفرزدق بصفة خاصة مقرونة بالنَّعت بالغدر :

قال النَّوَائِحُ مـن قُـرَيشٍ إنَّمـا　　غَدَر الحُتَاتُ ولَيِّنٌ والأَقْـرَعُ(٨٤)

إلى غير ذلك من الحالات التي تعبر فيها قريش عن شديد ضيقها بغدر المجاشعيين واستنكارها له :

- تقولُ قُرَيْشٌ بعد غَدْرِ مُجاشِعٍ　　لَحَى اللهُ جيرانَ الزُّبَيْر ، ورَجَّعُوا(٨٥)
- تقول قريش أيَّ جَارٍ غَرَرْتُـمُ　　وقد بُلَّ عِطْفا ذِي النِّعَال من الدَّمِ(٨٦)
- قالتْ قُرَيْشٌ ، وللجيران مَحْرَمَةٌ　　أين الحَوارِيُّ يافَيْشَ البَرَاذِين ؟(٨٧)
- قالت قريش : ما أَذَلَّ مُجَاشِعا　　جاراً ! وأكرم ذا القتيلَ قَتِيلاً !
  لو كان يَعْلَمُ غَدْرَ آل مُجاشِعٍ　　نَقَل الرِّحَالَ فأَسْرَعَ التَّحْوِيلا(٨٨)
- ولامَتْ قُرَيْشٌ في الزُّبيرُ مُجَاشِعاً　　ولم يَعْذِرُوا مَنْ كان أَهْلَ المَلاَوِمِ

وقالتْ قُرَيْشٌ : لَيْتَ جارَ مُجاشِعٍ دعا شَبَثاً أو كان جارَ ابْنِ خَازِمِ(٨٩)
● فما رَضِيَتْ بِذِمَّتِكُمْ قُرَيْشٌ وما بَعْدَ الزُّبَيْرِ لها اغْتِرارُ(٩٠)

وربما خصَّ جرير بعض البيوت القرشية بلوم المجاشعيين كآل العاص بن عبد المطلب (العصاة) وبني أمية بن عبد شمس (آل حرب) ، وبني هاشم بن المغيرة المخزوميين ، وأخطر ملاماً من هؤلاء بنو هاشم آل النبي ﷺ فما لومهم كلوم سواهم :

تلومُكُمُ العُصَاةُ وآلُ حَرْبٍ وَرهْطُ محمَّدٍ وبَنُو هِشامِ(٩١)

فلكي يعظِّم من فداحة الخيانة لا يجعلها قصراً على ذوي الزبير الأدنين ، بل عامَّةَ قريشاً بأسرها ، لأن في وضع قريش في موضع الضحية وَصْماً لمجاشع بأنهم « غَدَرُوا في ذلك بهامَةِ العرب وقبيلة الرسول »(٩٢) .

وفي إحدى جولاته الشعرية حول هذه المسألة مع مجاشع أطال القول مُعْمِلاً لسانه فيهم بطرق متنوعة ، فيلتفت إلى الزبير في الخطاب مبدياً تحسّره على غدرهم به ، ويسائله لِمَ لَمْ يتَّخِذ عليهم ضامناً فهم عبيد لا يُتوقَّع منهم وفاء . ثم يتساءل مستنكراً : أبقي لهؤلاء القيون رجاء في أن يكونوا من حزب محمد ﷺ بعد تخلّيهم عن صاحبه ؟ أغررتم فتى الجود وفتى الشجاعة الذي يطعم الناس في وقت الشدة والعسر في الشتاء حين تهبُّ الشّمال الصِّرَّة البليل ؟ . لقد ولّوا الدُّبُر والرِّمَاحُ مصوَّبَةٌ إلى جارهم غير حافلين بجواره !

ثم يخاطب الرجل الذي أجار الزبير ويقال إن اسمه (النَّعِر بن زمَّام)(٩٣) واصفاً إياه بابن عبد مجاشع ازدراء له فيقول إنّك لست بحرّ ، ولو كنت كذلك لصحبت جارك إلى أن يتجاوز حمى قومك . ويلتفت إليهم مقرّعاً لهم بالحقيقة الأليمة ؛ لقد قتل الزبير وأنتم جيرانه فلم يُجْدِه جوارُكُم ، فتبًّا لكم ، لغروركم إياه ، وسحقاً ! :

يالَهْفَ نَفْسي إذْ يَغُرُّكَ حَبْلُهُم هلاَّ اتَّخَذْتَ على القُيُونِ كَفِيلاً !
أَفَبَعْدَ مَتْرَكِهِمْ خَلِيلَ مُحَمَّدٍ ترجو القيونُ مع الرَّسول سبيلا ؟
ولَّوْا ظهورَهُمُ الأَسِنَّةَ بعدما كان الزُّبير مجاوراً وَدخِيلاً
لو كنت حُرًّا يابْن أُمِّ مُجَاشِعٍ شَيَّعْتَ ضَيْفَكَ فَرْسَخَيْنِ ومِيلا
أفَتَى النَّدى وفتى الطِّعَانِ غَرَرْتُمُ وفَتَى الشَّمال إذا تَهُبُّ بَليلا ؟
قُتِلَ الزُّبَيْرُ وأنتمُ جِيرانُه غَيًّا لمن غَرَّ الزُّبَيْرَ طَوِيلا(٩٤)

ومما اعتاد الشعراء القدامى على الهجاء به والتعيير الشَّرَهُ وكثرة الأكل بصفة عامة ، أو أكل شيءٍ أو طعامٍ بعينه ، فمثلاً عيَّر يزيد بن الصَّعِق بني تميم بحبِّ الطعام(٩٥) ؛ وكان بنو فقعس الأسديون يُعَيَّرون بأكل الكلاب(٩٦) ؛ كما عُيِّرت قريش بأكل (السخينة)(٩٧) حتى لُقِّبَت بها(٩٨) ؛ وذمّ الأعشى علقمة بن علاثة وقومه بالإكثار من الأكل مع غفلة عن الجيران الجائعين(٩٩) ؛ وعيَّر جرير نفسُه بني الهجيم بشدة الشَّرَه وحبّ الطعام حتى إنهم :

لو يسمعون بِأُكْلَةٍ أو شَرْبَةٍ   بِعُمَانَ أصبح جَمْعُهُمْ بِعُمَانِ
متأبِّطِين بَنِيهِمُ وبَنَاتِهِمْ   صُعْرَ الخُدُود لِرِيحِ كلِّ دُخانِ(١٠٠)

وقد عيَّر جرير مجاشعاً بالشَّرَه وحبِّ الطعام وخصص طعاماً لهم يدعى (الخَزِيرَ) أو (الخَزِيرة) وهي (عصيدة من دقيق مطبوخ بِوَدَكٍ أو قديدٍ أو لحمٍ) ، أو هي (قِطَعُ لَحْمٍ صغار توضع في القدر بماء كثير فإذا نضج ذُرَّ عليه دقيق)(١٠١) ، وقيل في وصفها غير ذلك(١٠٢) ، فاتّهمهم بأنَّ شَرَهَهُمْ ولَقَمَهُمْ من الخزير ثم استغراقَهُمْ في النوم بعد شبعهم منه هو الذي ألهاهم عن الزبير وإخوته وأهله الذين ، على النقيض منهم ، لم تَغْمُضْ لهم عين . ولا غرو فهم معروفون بالنهم لاسيما حين يحيطون بمائدة الخزير :

هلاَّ سألت مجاشِعاً زَبَدَ اسْتِها   أَيْنَ الزُّبَيْرُ ورَحْلُهُ المُتَمَزِّعُ ؟
أَجَحَفْتُمُ جُحَفَ الخَزِيرِ ونِمْتُمُ   وبَنُو صَفِيَّةَ لَيْلُهُمْ لا يَهْجَعُ ؟
وُضِعَ الخَزِيرُ فَقِيلَ : أَيْنَ مُجَاشِعٌ ؟   فَشَحَا جَحَافِلَهُ جُرَافٌ هِبْلَعُ(١٠٣)

ويكرر تقريعهم على التفريط في جنب الزبير ، وقلَّةِ مبالاتهم بما جرى له فقد شبعوا من (خزيرهم) فغطُّوا في السبات بينما لم تذق عيون نساء الزُّبير طعمه :

تعشَّوْا مِنْ خَزِيرِهِمُ فناموا   ولم تَهْجَع قَرَائِبُه انْتِحابا(١٠٤)

وهم بِطاءُ الحركة ، حين استصرخهم الزّبير لم يحفِلوا باستصراخه ، بل إنهم لم يحلُّوا حُبَاهُمْ دلالة على المسير لِغَوْثِه ، ولو دعوتهم لِلُقَمِ الخزير لثاروا إليه سراعاً :

ودَعَا الزُّبَيْرُ فما تَحَرَّكَتِ الحُبَى   لو سُمْتَهُمْ جُحَفَ الخَزِير لَثَارُوا(١٠٥)

وتعيير جرير لمجاشع بأكل الخزير كثير في شعره ، وقيل في سبب تعييرهم به أن ركباً

منهم مرُّوا برجل اسمه شهاب التغلبي فمدَّ إليهم ، وهم على رواحلهم ، خزيرةً ، فجعلوا يأكلون وهي تسيل على لحاهم(١٠٦) . وليس جريرٌ الوحيدَ الذي عيَّرهُم بها فقد ذكر ابن قتيبة أن مجاشِعاً وقريشاً كانتا تعيَّران بالخزير(١٠٧) .

ويؤكد أن المجاشعيين شديدو الجبن فقلوبهم كالقصب فراغاً ، ولذلك غرُّوا جارَهم وخاسوا بِعَقْدِهِ ، فيا لَلْجَار المُضَيَّع من جار كريم !

ومُجَاشِعٌ قَصَبٌ هَوَتْ أَجْوَافُـهُ   غَرُّوا الزُّبَيْرَ ، فأَيَّ جَارٍ ضَيَّعُوا(١٠٨)

ويبدي التحسّر الشديد على ذلك القتيل الذي ضمه جدث في وادي السباع ، وتكراره ذكر اسم الوادي ، كما لا يخفى ، ليس بلا مغزى ، فيؤكد أن الرَّزِيَّةَ بفقده لا رزية مثلها ، فإن نبأ مصرعه نبأ عظيم ، هزَّ قلوب المؤمنين بل هزّ حتى سور المدينة وجبالها . وقد شبع بنات الزبير من النحيب عليه والعويل ، لكن لا يجدي البكاء ولا العويل :

إنّ الرَّزِيَّةَ من تضمَّنَ قَبْـرَهُ   وادي السباع ، لكلِ جَنْبٍ مَصْرَعُ
لمّا أتى خبر الزُّبير تـواضَعَتْ   سُورُ المَدينةِ والجِبَالُ الخُشَّعُ(١٠٩)
وبكى الزُّبَيْرَ بَنَاتُهُ في مَأْتَـمٍ   ماذا يَرُدُّ بُكَاءَ من لا يسمع ؟!(١١٠)

ويسخر منهم لعدم انتصارهم للزبير من (الأجارب) وهم قوم ابن جرموز ، وبالإضافة إلى ذلك يرميهم بالخسّة والدناءة لأنهم أخذوا ما ترك المغدور به في مزاودِهِ ورحاله من بقايا طعام فأكلوه ، فحتى إذْ لم يَحْمِلوا الأمانَةَ لم يَعِفُّوا عن أَدْنَأ الطَّمَع . ويشبّههم في الجبن بعدد من طير الحُبَارَى في رملة قد أصابها مطر هوى إليهنَّ صَقْرٌ :

قَتَل الأَجَارِبُ ، يافَرَزْدَقُ ، جارَكُمْ   فكلوا مَزَاوِدَ جَارِكِمْ وتَمَتَّعُـوا
أَحُبَارَيَـاتِ شَقَائِـقٍ مَوْلِيَّـةٍ   بالصَّيِّفِ صَعْصَعَهُنَّ بَازٌ أَسْفَعُ(١١١) ؟

ويعود إلى تعييرهم بعدم القيام بأدنى حركة لنصرة الزبير ولو كانت مجرد (حلّ الحبوة) لما قد تُشْعِر به من تأهُّب لإجابة الداعي :

قُتِل الزُّبَير وأَنْتَ عَاقِدُ حُبْـوَةٍ   تَبًّا لِحُبْوَتِكَ التي لم تُحْلَلِ(١١٢)

ويؤكّد بالتكرار أنهم غرُّوا الزبير ولم يفوا بعقدهم معه ، ويشبههم بثيران حرثٍ لَهُنَّ خُوارٌ ، ويشبه أباهم بثور عليل !

غرُّوا بِعَقْدِهِمُ الزُّبَيْرَ كَأَنَّهُمْ أَثْوَارُ مَحْرَثَةٍ لَهُنَّ خُوَارُ(١١٣)
وما حَافَظَتْ يَوم الزُّبَيْر مُجَاشِعٌ بَنُو ثِيلِ خَوَّارٍ يُداوَى بِحَرْمَلِ(١١٤)

ويبرأ ، في موضع آخر ، من مجاشع ، ويدعوهم ساخراً إلى عدم حمل الأسلحة (ألقوا السيف) فليسوا لذلك بأهل لأنهم لم يعطوها حقها ، ويطلب منهم أن يحملوا عوضها الحقائب النسوية (العِياب) لأنهم أشبه بالنساء منهم بالرجال . ويصفهم بأنهم (عبيد) وأنهم غرّوا صاحب دم كريم أضاعوه فانتهب رحله ومتاعه ، وكانوا على جياد نشطات تجاذبهم الأعِنَّة لكنهم تقاعسوا عن الانطلاق عليها انتصاراً له :

أجيرانَ الزُّبَيْرِ بَرِئْتُ مِنكم فأَلْقُوا السَّيْفَ واتَّخِذُوا العِيابا
لقد غَرَّ القُيُونُ دَماً كَرِيماً وَرَحْلاً ضاعَ فَانْتُهِبَ انْتِهَابَا
وقد قَعِسَتْ ظُهورُهُم بخَيْلٍ تُجَاذِبُهُمْ أَعِنَّتَهَا جِذَابَا
عَلاَمَ تَقَاعَسُونَ وَقَدْ دَعَاكُمْ ؟ أَهَانَكُمُ الّذي وَضَعَ الْكِتَابَا(١١٥)

وحسبنا هذا القدر من حديث جرير عن المسألة الزبيرية التي استأثرت بأوفر قدر من حديثه عن الجوار بصفة عامة فطغت على ما عداها من أمور(١١٦) .

وهي كافية لرسم صورة للنظرة العربية السائدة في العصور الإسلامية المبكرة عن الجوار من خلال شعر هذا الشاعر ، إلا أن ممّا يزيد تلك الصورة جلاء الوقوف ، ولو عابراً ، عند جانب واحد من جوانب الحوار لم يكن له حظّ في تلك الصورة هو « النظرة إلى من لا يستجير بأحد ، ومن هو ـ بخلاف ذاك يكثر الاستجارة بغيره » :

إذا كانت إجارة المستجير عرفاً مسيراً عليه ، وأمراً محموداً رامزاً إلى عزَّة المُجيرِ ومَنَعَتِه وبأسه وقدرته على الارتباط الوثيق برباط الكلمة ، كما هو معروف ، وكما تجلَّى مما مضى ، فإن الاستجارة أمارةُ وَهْنٍ يلجأ إليها الذليل الذي ليست له عَضُد . ولهذا افتخر مفتخرون ومدح مادحون بعدم الاستجارة ، وهجا هاجون بكثرتها . وكان شاعرنا من أولئك المفتخرين فقد أكد أنّ قومه ، لمنعتهم وعزّتهم ، يبنون بيوتهم قريباً من أعدائهم وفي الأماكن البارزة لهم لقلّة مبالاتهم بهم ، وهم أقوى من أن يستجيروا :

نَبْنِي على سَنَنِ العَدُوّ بُيوتَنا لا نَسْتَجِير ولا نَحُلّ حَرِيدا(١١٧)

وهم يمنعون أنفسهم ولا يحتاجون إلى محالَفَةٍ أو مجاورةٍ ، وإبلهم لا تستجير بغير أهلها ، وذلك كناية عن امتناعهم عمن يروم أذاهم ، وفيه أيضاً تعريض بالفرزدق

لاستجارته ببكر بن وائل من زياد بن أبيه لمّا غضب عليه وطَلَبَهُ :

• النَّازِلون الْحِمَى لَمْ يُرْعَ قَبْلَهُمُ   والمانعون بلا حِلْفٍ ولا جار(١١٨)
• لنا إِبِلٌ لم تَسْتَجِرْ غَيْرَ قَوْمِها   وغَيْرَ الْقَنا صُمّاً تُهَزُّ عَوامِلُهْ(١١٩)

ومدح جرير قيساً بأنها تجير سواها ولا تستجير بأحدٍ فهي أمنع من ذلك(١٢٠) .

وذمَّ العباسَ بن يزيدَ الكِندِيَّ لما نصَر بني نمير بعد أن هجاهم جرير ، وعيّره بأشياء منها كثرة استجاراته بالقبائل لِذُلِّهِ ، فهو يوماً مستجيرٌ بفَزارَةَ ويوماً بِكِلاب ، ليتقوّى بهم من ضعف :

ويوماً في فَزارة مُسْتَجِيراً   ويوماً ناشِداً حِلْفاً كِلابا(١٢١)

كما عيّر مَهْجُوِّيه الدَّائمين مجاشِعاً بالشيء عينه ، ففي حين أن الله أخزاهم بعدم غيرتهم على المحارم ، وعدم وفائهم لمن يجيرون ، هم كثيرو الاستجارة ، لا يكاد يمضي نهار دون أن يستجيروا بأحد ، فهم دائماً متفرقون ملتمسون لمن يؤازرهم وينصرهم تفرق السهام التي تمزقت كنانتها فانتثرت :

ألم تَرَ أنَّ اللهَ أخْزَى مُجاشِعاً   إذا ذُكِرَتْ بعد البلاء أمُورها ؟
بأنَّهُمُ لا مَحْرَمٌ يَتَّقُونَه   وأن لا يَفِي يوماً لِجارٍ مُجِيرُها

……

ولا يَعْصِمُ الجِيرانَ عَقْدُ مُجاشعٍ   إذا الحرب لم يَرْجِعْ بِصُلْحَ سَفِيرُها
أفي كل يوم تَسْتَجِيرُ مُجَاشِعٌ   تَفَرُّقَ نَبْلِ الْعَبْد أوْدَى جَفِيرُها(١٢٢)

• حواشي وتعليقات •

(١) ينظر ديوان الحطيئة ، تحقيق نعمان أمين طه (القاهرة : شركة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م) ، ٤٢ ؛ ونقائض جرير والفرزدق ، (بريل : ليدن ، [١٣٢٦ ـ ١٣٢٧هـ]/١٩٠٨ ـ ١٩٠٩م) ، ٨٢٧/٢ .

(٢) ينظر ديوانه ، الموضع نفسه ، والأغاني لعلي بن الحسين الأصبهاني ، (القاهرة : مصور عن طبعة دار الكتب ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) ، ١٥٧/٢ والتي بعدها .

(٣) كان قصير القامة ، ضعيف الفؤاد ، معوج القدمين ، ينظر ديوان جرير ، بشرح محمد بن حبيب ، تحقيق نعمان محمد أمين طه (القاهرة : دار المعارف ، [١٣٨٩ ـ ١٣٩٠هـ]/١٩٦٩ ـ ١٩٧٠م) ، ١١ .

(٤) وينظر « فن الهجاء وتطوره عند العرب » لإيليا حاوي ، (بيروت : دار الثقافة ، د . ت) ، ٢٩٠ والتي بعدها .

(٥) والفخر والرثاء ، كما هو غني عن القول ، مديح ، إلا أن الشاعر يخصّ بالأول نفسه وقومه ، ويخص بالثاني ميّتاً . وانظر ، إن شئت ، العمدة ، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، (القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م) ، ١٤٣/٢ و١٤٧ .

(٦) وينظر مثلاً « تاريخ النقد الأدبي عند العرب » لإحسان عباس ، (بيروت : دار الثقافة ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م) ، ١٣٥ .

(٧) ينظر مثلاً الأغاني ، الموضع نفسه .

(٨) ينظر نفسه ، ١٥٨/٢ .

(٩) ينظر الديوان ، ٩٤ . وبنو بهدلة وبنو قريع جميعاً فرعان من عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة ابن تميم . وكان بنو بهدلة أشرف بيت في مضر في الجاهلية ، لكنهم قليلو العدد إذا ما وزنوا ببني قريع .

(١٠) ينظر نفسه ، ٩٥ .

(١١) الجُلّة : وعاء من خوص يكنز فيه التمر . وهي « القَلّة » المعروفة في الوقت الحاضر في أنحاء عدة من بلاد العرب .

(١٢) المصدر نفسه ، الموضع نفسه ، والأغاني ، ١٨٢/٢ .

(١٣) الديوان ، الموضع نفسه .

(١٤) المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

(١٥) ينظر نفسه ، الموضع نفسه .

(١٦) ينظر نفسه ، الموضع نفسه .

(١٧) نفسه ، ٩٦ ، والأغاني ، ١٨٣/٢ .

(١٨) الديوان ، الموضع نفسه ، والأغاني ، الموضع نفسه . وقيل في طريقة اختياره بني قريع قول آخر .

(١٩) ينظر حديث الأربعاء ، لطه حسين (القاهرة : دار المعارف ، [١٣٤٤هـ]/١٩٢٥م) ، ١٢٩/١ .

(٢٠) تُحَلأ : تُمنع من ورود الماء .

(٢١) دجا : من قولهم : « نعمة داجية » أي سابغة . ووردت (دحا) بمعنى « اتّسع وانبسط » .

(٢٢) الديوان ، ٩٧ ، والأغاني ، ١٨٣/٢ والتي بعدها . والرَّباء : الفضل والمنّة .

(٢٣) ولخبر الحطيئة مع الزبرقان وبني قريع هذا عدة روايات دمجنا بعضها مع بعض في روايتنا السالفة له . ولينظر الديوان ، ٩٠ ـ ٩١ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ٩٨ ـ ١٠٩ .

(٢٥) الأغاني ، ١٨٧/٢ .

(٢٦) نفسه ، الموضع نفسه .

(٢٧) الديوان ، ٩٨ .

(٢٨) نفسه ، ١٠٢ .

(٢٩) نفسه ، ١٢١ ـ ١٣٥ .

(٣٠) نفسه ، ١٢٨ .

(٣١) نفسه ، الموضع نفسه ، العِناج : حبل يُشَدُّ أسفل الدلو ، إذا كانت ثقيلة ثم يشدّ إلى العراقي . والكَرَب : الحبل الذي يشدّ في وسط (عراقي) الدلو أو (الغَرْب) أي « الدلو الكبيرة » ثم يُثنّى وَيُثلّث ليكون

هو الذي يلي الماء فلا يعفن الحبل الكبير . (عن الديوان شرح ابن السكيت ، ص ١٣٤ والتي بعدها بتصرف طفيف) . وفي (الكرب) أقوال أُخَرُ .

وذلك كله كناية عن شدة الحرص على الشيء وعدم تضييعه ، فالممدوحون يحرصون على الوفاء للجار كما يحرص على الماء في الدلوِ بشدِّهِ بعددٍ من الحبال .

(٣٢) في قوله :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البُنى وإن عاهدوا أوْفَوْا ، وإن عقدوا شدُّوا

المصدر نفسه .

(٣٣) في قوله :

والموثقون لجارِ البيت إن عقَدُوا ومنهمُ سابِقُ الجُلَّى وداعيها

المصدر نفسه .

(٣٤) في قوله :

لقد شدَّتْ حَبائلُ آل لأيٍ حِبالي بعد ما رَثَّتْ قُواها

المصدر نفسه ، ١١٧ .

والاستخدام المجازي (للحبل) كناية عن (عقد الجوار) و(شدّه) أو (إرخائه) أو (غرّه) أي انفلاته من يد ممسكه ، كثير في الشعر العربي القديم ، وإذا أجلنا النظر في ديواني جرير والفرزدق مثلاً نجد أبياتاً تستخدمه في المواضع التالية :

أ ـ في ديوان جرير : ١٠٩ ، ٢٢٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٣١٠ ، ٧٦٠ ، ٩٣٠ ، ٩٣٦ ، ٩٨٣ ، ١٠٠٢ (في موضعين) .

ب ـ في ديوان الفرزدق : ١٩/١ ، ٢٢ ، ١٩٣ ، ٢٤٦ ، ٢٦٧ ، ١٧/٢ ، ١٢٨ ، ١٨٩ ، ٣٢٢ .

(٣٥) الديوان ، ١٣٥ . شُسَّب : ضامرات ، عجاف . بلاد الطود : يقصد بها الشام . عارية : سنة باردة مجدبة . حَصّاء : لا نبت فيها . لم تُترِكْ دون الغضى شذَبا : أي أكلت الشجر ولم تُبقِ إلا العُصي . والشَّذَب : اللِّحاء . كَرَبَ : كاد ، أوشك .

(٣٦) ينظر العمدة ، ١٠٧/١ .

(٣٧) ينظر طبقات فحول الشعراء ، لمحمد بن سلام الجمحي ، تحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة : مطبعة المدني ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) ، ١١٦/١ وحاشيتها .

(٣٨) مستوعر : مكان وعر . شاس : مكان غليظ مرتفع .

(٣٩) مَرَيْتُكُم : طلبت ما عندكم ، وأصله من مَرَيْتُ الناقة ، أي مَسَحْتُ ضرعها لِتَدِرَّ .

(٤٠) حَوْزي : الحَوْز : السَّوْقُ قليلاً قليلاً . التَّنْسَاس : السَّوْقُ الشديد .

(٤١) آسي : الآسي : المُداوي .

(٤٢) الديوان : ٢٨٣ والتي بعدها . وقد قدمنا بعض الأبيات على بعض مراعاة للوحدة الموضوعية وترابط الفِكَر .

(٤٣) نفسه ، ١٨٤ .

(٤٤) نفسه ، ١٦١ . عازب : بعيد . ندي : رطب . والموصوف محذوف (أي في مرعى بعيد رطب) .

(٤٥) نفسه ، ١١٧ .

(٤٦) نفسه ، ١١٩ . نثاها : النَّثا : الكلام في الشخص حسناً كان أو غير حسن .

(٤٧) نفسه ، ٩ . عتيق الحُرَّتين : الحُرَّتان الأُذُنان . وعتقهما أمارة على عتق الجواد .

(٤٨) في قوله :

هُمُ المُتَضَمِّنُون على المَنَايَا   بمالِ الجارِ ذَلِكُمُ الوَفَاءُ

(٤٩) نفسه ، ٨١ .

(٥٠) نفسه ، ٨٨ . وصدره : (صبوراً على ما نابَهُ غَيْرَ قُعْدُدِ) .

(٥١) نفسه ، ٣٢ . مَرِسَ الحَبْلُ : كناية عن عدم الثبات من (مَرِسَ الحَبْلُ يَمْرُسُ مَرْساً) إذا سقط بين البكرة (المحالة) ومحورها أو (قَعْوِها) . وصدر البيت : سما بالجيادِ الجُرْدِ لا متخاذِلُ .

(٥٢) نفسه ، ٦٨ .

(٥٣) نفسه ، ٢٧٣ . دُسْمُ الثياب : كناية عن عدم العفة ، أو التلطخ بالذنوب والمخازي . لم تضرّس : لم تُقَوَّم وتُثَقَّف . يُعْطِي الظُّلامة : يقبل الظلم ولا يمتنع منه لذِلّته . الحَوُس : الشَّداد . ج حَوْساء . عن المصدر نفسه ، ٢٧٤ .

(٥٤) ينظر العمدة ، ١٨٤/٢ . وهو لم يضع جريراً في الحسبان لأنه منهم ، فقد أراد مَنْ مَدَحَهُمْ مِنْ سواهم .

(٥٥) الديوان ، ٦٢ . صَنَعٌ لجارهم : الصَّنَع : الحاذق بالعمل ، ضد الأخرق ، و(صَنَاع) مثلها ، إلا أنها أكثر ما تقال للأنثى .

(٥٦) العمدة ، ٥٠/١ .

(٥٧) ينظر مثلاً تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم (القاهرة : دار المعارف ، [١٣٩٠هـ]/١٩٧٠م) ، ٥٣٤/٤ والتي بعدها ؛ وخزانة الأدب ، لعبد القادر البغدادي ، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، [١٣٩٦هـ]/١٩٧٦م) ، ٤٣٣/٥ .

(٥٨) الخزانة ، ٢١٩/٤ .

(٥٩) المصدر نفسه ، ٤٣٣/٥ .

(٦٠) الديوان ، ٢٥٦ .

(٦١) تنظر القصيدة في المصدر نفسه ، ٢٥٦ ـ ٢٥٩ . ومطلعها :

أَرَسْمَ الدار إذ نزلوا الإيادا   تُجُرُّ الرَّامِسَاتُ به قَبَادا

(٦٢) المصدر نفسه ، ٨٨٥ . القليب المُعَوَّر : البئر التي سُدَّت أعينها فلا ينبع فيها ماء ، وهي كناية عن المهلكة .

(٦٣) نفسه ، ٩٣٠ . عواند : عروق يجري دمها في جانب . وغصَتْ : ظَلَّ الدم يجري منها ولم يقف دمها أو ينقطع (برقاً) .

(٦٤) نفسه ، ٨٩٥ .

(٦٥) نفسه ، ١٣٥ . غير مِيل : الميل جـ أَمْيَل وهو الذي لا يثبت على ظهر الدَّابة ، أو يميل على السَّرج في جانب ولا يستوي عليه . وقيل : هو الذي لا سيف معه . وقيل هو الجبان . الرَّهج : الغبار . مُقْرَبَة : مُدْناة مكرمة ، يعني فرساً . طِرْف : كريم ، أي حصان كريم . سبوح : كأنها تسبح لسرعتها .

(٦٦) نفسه ، ٩٩٢ .

(٦٧) نفسه ، ٨٤٧ .

(٦٨) نفسه ، ١٠٩ .

(٦٩) نفسه ، ٣١٠ .

(٧٠) نفسه ، ٣٥٥ .

(٧١) نفسه ، ٤٩٢ . لا يُهلكُمْ : لا تُرْغكُم . رجّعوا : استرجعوا ، قالوا : إنّا لله وإنّا إليه راجعون .

(٧٢) نفسه ، ٩٤٦ .

(٧٣) نفسه ، ٧٦٢ . رَقَمات فلج : هما خبراوان إحداهما خبراء ماويّة والأخرى خبراء الينسوعه كما قال ابن حبيب ، المصدر نفسه ، الموضع . وكنى بهما عن المساحات الشاسعة .

(٧٤) نفسه ، ٨٨٣ . الأنوق : الرَّخمة ، ويضرب المثل بها في بعد الموطن واستعصاء المنال ، فيقال : « دونه بيض الأنوق » ، لأنها تبيض في أعالي الجبال الشواهق . ولأن هذا الطائر مستقذر أشرنا إلى العُقاب عوضاً عنه أعلاه ، وكلاهما من ذوات المخلب من الطير تأدباً مع ذلك الصحابي الكريم رضي الله عنه .

(٧٥) نفسه ، ٩٨٣ ، كَنَاج : كَوَغل . عَطَالة : جبل منيع في شرقي بلاد العرب . أعصم : ما كان في ذراعيه أو أحدهما من الوعول بياضٌ وسائره أسود أو أحمر والجمع عصم .

(٧٦) نفسه ، ٩١٤ .

(٧٧) نفسه ، ٩٦٠ . تَرَمَّرَتْ : تحركت . جُرِّع : كُسِّر . عوالي : عوالي الرماح ، جـ عالية وهي قدر الثلث مما يلي السِّنان .

(٧٨) نفسه ، ٢٠٥ .

(٧٩) شرح ديوان الحماسة ، لأبي على أحمد بن محمد المرزوقي ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، (القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) ، ١١٤ والتي تليها .

وانظر عن شيوع أسلوب الموازنة في الشعر الجاهلي : « الهجاء الجاهلي ، صُوَرُهُ وأساليبه الفنية » ، لعباس عجلان ، (الاسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٥٨م [١٤٠٥هـ]) ، ص ٢٨٨ ـ ٢٩٠ .

(٨٠) الديوان ، ٤٨٦ .

(٨١) نفسه ، ٤٧٥ . رغوان : مجاشع ، لأنه كان خطيباً كثير الكلام . ضوطر : الضوطر الضخم ، وهو اسم رجل منهم .

(٨٢) نفسه ، ٨٥٨ . المُحَصَّب : موضع رمي الجمار بمنى . ثبير : جبل بمكة . شبٌ : ترخيم « شبّة » يعني شَبَّة بن عقال بن صعصعة زوج جعثن أخت الفرزدق وابن عمِّها .

(٨٣) نفسه ، ٩١٤ .

(٨٤) نفسه ، ٩١٣ . لَيْن : لقب غالب بن صعصعة ، أبي الفرزدق .

(٨٥) نفسه ، ٤٩٢ .

(٨٦) نفسه ، ٥٠٦ . ذو النعال : فرس الزُّبَير الذي قتل عليه .

(٨٧) نفسه ، ٥٥٨ .

(٨٨) نفسه ، ١٠٨ .

(٨٩) نفسه ، ١٠٠٢ .

(٩٠) نفسه ، ١٣٥ .

(٩١) نفسه ، ٢٠٥ .

(٩٢) فن الهجاء وتطوره عند العرب ، ٣٦٦ .

(٩٣) الديوان ، ١٠٩ .

(٩٤) نفسه ، الموضع نفسه .

(٩٥) ينظر مثلاً «كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني»، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّيْنَوَرِي، تحقيق ف. كرنكو، (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م)، ٥٨٠.

(٩٦) ينظر مثلاً الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، (القاهرة: ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م)، ٢٦٧/١.

(٩٧) وهي طعام من دقيق. وينظر مثلاً «الصحاح»، لإسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، (القاهرة، ؟، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ٢١٣٤/٥ (س خ ن)؛ وطبقات فحول الشعراء، ١٤٥/١؛ واللسان (س خ ن)؛ والعمدة، ٧٦/١ والتي بعدها.

(٩٨) قال كعب بن مالك:

زعمتْ سَخِينةُ أن سَتَغْلِبُ ربَّها   ولَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلاَّبِ

ينظر اللسان (المادة عينها).

وقال خداش بن زهير:

ياشِدَّةً ما شَدَدْنا غير مُنْكَرَةٍ   على سخينةَ لولا اللَّيلُ والْحَرَمُ

ينظر شعره، صنعة يحيى الجبوري، (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ٩٣.

(٩٩) في قوله:

تبيتون في المَشْتَى مِلاءً بطونُكُمْ   وجارَاتُكُم غَرْثَى يَبِتْنَ خَمائِصاً

ديوانه، تحقيق وشرح م. محمد حسين، (القاهرة: كلية الآداب [١٣٧٠هـ]/١٩٥٠م)، ١٤٩.

(١٠٠) ينظر الديوان، ٤٣٩، والحيوان، ٢٥٨/١.

(١٠١) الخزانة، ٢٢١/١.

(١٠٢) ينظر المخصص لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، (بيروت: مصور عن طبعة بولاق عام ١٣١٦هـ [١٨٩٨م])، ١٤٥/٤.

(١٠٣) الديوان، ٩١٣. جَحَفْتُم: جَرَفْتُم الطعام بقوّة. وجُحَف الخنزير قِطَعُهُ الكبار؛ بنو صفية: هي أم الزبير صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنهما. شحا جحافله: فتح شفتيه، والجحافل في الأصل لذوات الحافر من الحيوان واستعارها للإنسان للتقبيح والتشنيع. جُراف: عظيم الجَرْف، أي اللَّقْم في أكله. هِبْلَع: واسع الجوف.

(١٠٤) نفسه، ٨١٦.

(١٠٥) نفسه، ٨٦٧. الحُبَى: جـ حبوة: جِلْسة معينة يشد فيها الجالس ركبتيه بيديه أو بعمامته.

(١٠٦) ينظر الخزانة، الموضع نفسه.

(١٠٧) ينظر المعاني الكبير، ٣٨٥.

(١٠٨) الديوان، ٩١٣.

(١٠٩) هذا البيت شاهد نحوي على اكتساب المضاف التأنيث من المضاف إليه. ولهذا أنّث (تواضعت)، ينظر مثلاً الخزانة، ٢١٨/٤ وما بعدها.

(١١٠) الديوان، الموضع نفسه.

(١١١) نفسه، ٩١٤. شقائق: جـ شقيقة، وهي أرض رملية بين كثيبين. مَوْلِيّة: أصابها (وَلْيٌ) وهو مطر بعد مطر سابق له. صعصعهنّ: فرّقهن. أسفع: أسود في سواده حمرة.

(١١٢) نفسه، ٩٤١.

(١١٣) نفسه ، ٨٦٨ .

(١١٤) نفسه ، ٩٤٦ . الثّيل . ذَكَر الجمل والثور .

(١١٥) نفسه ، ٨١٦ .

(١١٦) أثار جرير هذه المسألة ٤٠ مرة ، بينما أثار أمر (الجوار) بما فيه « مسألة جوار الزبير » ٧٥ مرة ، أي أن نسبة تناولها إلى تناول غيرها من موضوعات الجوار هو ٥٣٪ ، يضاف إلى ذلك أنه إذا أثارها أطال القول فيها وفصّله ، وإذا أثار الجوار العامّ مال إلى الاقتضاب التام .

(١١٧) نفسه ، ٣٤١ . سَنَن العدوّ : قال ابن حبيب : « يقال سُنَن وسَنَن . وهو وجه الطريق ومتنه وظهره » . حَريدا : بيتاً منفرداً . يعني أنهم لا ينزلون في قوم من ضعف وذلّة لما هم عليه من قوة وكثرة . ينظر اللسان (ح ر د) .

(١١٨) نفسه ، ٢٣٥ . وقد يكون معناه أنهم يمنعون سواهم ويحمونه لعزتهم وإن لم يكن حليفاً لهم أو جاراً .

(١١٩) نفسه ، ٩٦٦ .

(١٢٠) في قوله :

ألم تَرَ قيساً ، حين خارتْ مُجاشعٌ   تُجير ، ولا تُلْقَى قَبيلاً يُجيرها

نفسه ، ٨٨٠ .

(١٢١) نفسه ، ٦٥٠ .

(١٢٢) نفسه ، ٨٨١ والتي بعدها . جَفيرها : الجَفِير : كنانة السهام . أودي : ذهب ، تمزق .

وللمزيد من شعر جرير عن الجوار ينظر فخره بأحد فرسان قومه (شريح بن الأحوص بن جعفر ابن كلاب) (٢٣٨) ، وفخره بقومه (٥١٧ ، و٩١٤ ، و٩٢٤ ، و٨٨٨ ، و٩٥١ ، و٩٩٥) ، ومدحه لعمر بن عبد العزيز (٢٧٦) وللعباس بن الوليد بن عبد الملك (٢٤٧ ، و٦٢٤) ، ولبني ثعلبة (٤٢١) ، ولهشام بن عبد الملك (٢٢٤) ، ولبني نهشل (٨٨٤) ، ولبكر مع هجاء تغلب (١٠١٢) ؛ ورثاؤه لعقبة بن عمار (٤٤٣) ، وللمرّار بن عبد الرحمن بن أبي بكرة مولى النبي ﷺ ومدحه لأبيه وعمه (٧١٩) ، وللفرزدق (٩٣٨) ، وهجاؤه لبني قيس (البراجم من تميم) (٥٠٩) ، وللزبرقان وتعييره بتضييع جاره الحطيئة (٨٣٠) ، ولبني السِّيد لغدرهم بجارٍ لهم (٤٢٥) ، وللفرزدق (٤٧٨ و٩٩٦/٢) ، ولمجاشع (٨٩٧) ، ولغسّان بن ذهل السَّليطيّ (٨٩٠) ولبني سَليطٍ قومِ غسّانَ هذا (٩٠١) .

● المصــــادر ●

- إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، بيروت : دار الثقافة ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .
- الأصبهاني ، علي بن الحسين ، الأغاني ، القاهرة : مصور عن طبعة دار الكتب ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .
- الأعشى (ميمون بن قيس) ، ديوانه ، تحقيق وشرح م . محمد حسين ، القاهرة : مكتبة الآداب [١٣٧٠هـ] - ١٩٥٠م .
- إيليّا حاوي ، فنّ الهجاء وتطوره عند العرب ، بيروت : دار الثقافة ، د . ت .
- البغدادي (عبد القادر) ، خزانة الأدب ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة : ١ : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، [١٣٩٩هـ] - ١٩٧٩م ، ٤ : دار الكاتب العربي ، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م - ٥ :

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، [١٣٩٦هـ] ـ ١٩٧٦م .

- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة : ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م .
- جرير ، ديوانه ، بشرح محمد بن حبيب ، تحقيق نعمان أمين طه ، القاهرة : دار المعارف ، ١ : [١٣٨٩هـ] ـ ١٩٦٩م ، ٢ : [١٣٩٠هـ] ـ ١٩٧٠م .
- جرير والفرزدق ، نقائضهما ، ليدن ، بريل ، [١٣٢٦هـ ـ ١٣٢٧هـ] ـ ١٩٠٨م ـ ١٩٠٩م .
- الجوهري (إسماعيل بن حماد) ، الصحاح ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، القاهرة : ؟ ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .
- الحطيئة ، ديوانه ، تحقيق نعمان أمين طه ، القاهرة : شركة مصطفى الحلبي ، ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م .
- خداش بن زهير ، شعره ، صنعة يحيى الجبوري ، دمشق ، مجمع اللغة العربية ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .
- ابن رشيق ، (أبو علي الحسن) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م .
- ابن سلام الجمحي ، (محمد) ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م .
- ابن سيده (علي بن إسماعيل) ، المخصص ، بيروت (مصور عن طبعة بولاق سنة ١٣١٦هـ [١٨٩٨م)] .
- الطبري ، (محمد بن جرير) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، القاهرة : دار المعارف ، [١٣٩٠هـ] ـ ١٩٧٠م .
- طه حسين ، حديث الإربعاء ، القاهرة : دار المعارف ، [١٣٤٤هـ] ـ ١٩٢٥م .
- الفرزدق ، ديوانه ، بيروت : دار صادر/دار بيروت ، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م .
- ابن قتيبة الدينوري (عبد الله بن مسلم) ، كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني ، تحقيق د . كرنكو ، حيدر آباد الدكن : دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م .
- المرزوقي (أبو علي أحمد بن محمد) ، شرح ديوان الحماسة ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .
- ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي) ، لسان العرب المحيط ، بيروت : دار لسان العرب ، (د . ت) .